

مِنْ مَدْرَسَةِ الْحَجَّ

دُرُوسٌ عَقْدِيَّةٌ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْحَجِّ .
الْحَجُّ وَتَهْذِيبُ النَّفُوسِ .
خُطْبٌ وَمَوَاعِظٌ مِنْ حِجَّةِ الْوَدَاعِ .



تَأَلَّفَ

عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبِلَادِي

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةٍ

وَقَفَّ الشَّيْخُ أَبُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَقَيْصِي

رَحِمَهُ اللَّهُ وَغُفِرَ لَهُ ذُنُوبُهُ فِي ذِيهِ

بِإِذْنِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

مِنْ مَدْرَسَةٍ

الْحَجَّاجِ

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى لـ :

دار الأمام أحمد
للنشر والتوزيع والصحف

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٣٦٣٤ / ٢٠٠٥م

دار الأمام أحمد

٦ شارع عزيز فأنوس - مئسفة البحر - جسر السرس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال: ٠٠٢/٠١٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail: Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

WWW. DarAlemamAhmad.Com

مِنْ مَدْرَسَةٍ



دُرُوسٌ عَقْدِيَّةٌ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْحَجِّ
الْحَجُّ وَتَهْذِيبُ النَّفُوسِ
خُطَبٌ وَمَوَاعِظٌ مِنْ حُجَّةِ الْوَدَاعِ

تَأَلَّفَ

عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرُ

دَارُ الْإِسْلَامِ الْحَبَشَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المجموع

الحمد لله الحكيم العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلي العظيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى صراط الله المستقيم، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على منهاجه القويم.

وبعد:

فهذا مجموعٌ يحوي ثلاث رسائل تتعلّق بالحج، تختصُّ بجانب الدروس المستفادة منه، والعبر التي تُنهل من معينه، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

وقد طُبعت مفردةً غير مرة، وتُرجمت إلى عدد من اللغات بمنّ الله وفضله، وقد رأيت لَمَها في هذا المجموع، ورتبتها فيه حسب الأسبقية في تأليفها ونشرها، وهي:

١ - «دروسٌ عقديّةٌ مستفادةٌ مِنَ الْحَجِّ».

٢ - «الحجُّ وتهذيب النفوس».

٣ - «خطب ومواعظ من حَجَّة الوداع».

وكلُّ رسالة من هذه الرسائل الثلاث تشتمل على ثلاثة عشر درساً، لكل درس منها عنوان مستقل، يمكن الاستفادة منها بقراءتها على الحجاج على شكل دروس يومية.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَبَارِكَ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ خَالِصًا،
وَلِعِبَادِهِ نَافِعًا، وَأَنْ يُثَبِّتَ مَنْ سَعَى فِي نَشْرِهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لِي، وَلِوَالِدِي، وَلِلْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنْ حُجَّاجِ بَيْتِ
اللَّهِ حُجَّجَهُمْ، وَأَنْ يُوفِّقَهُمْ لَتَحْقِيقِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضَاهُ.
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

١٤٢٨/٧/٨

دروس عقديّة
مستفادة من الحج

بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

**تقديم فضيلة الشيخ
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان**

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد:

فقد اطلعتُ على نبذة مختصرة بعنوان: «دروسٌ عقديَّةٌ مُستفادة من الحجِّ»، بقلم الدكتور الشيخ: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، فألفيتها نبذة مفيدة، تشتمل على دروس قيِّمة في العقيدة تُستفاد من مناسك الحج - وهكذا جميع العبادات في الإسلام هي قائمة على التوحيد - ولكن الحج بصفة خاصة يجتمع له العالم الإسلامي من أقطار الأرض في بلد الله الحرام، يتلقون تعاليم المناسك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو بمثابة دورة تعليمية يرجعون بعدها إلى بلادهم؛ وقد صحَّحوا كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانوا عليها.

فما أعظم هذا الحج، وقد قال الله تعالى فيه لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (٢٨)﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

وإنَّه واجبٌ على العلماء أن يُبينوا تلك المنافع ويشرحوها للنَّاس حتَّى يستفيدوا من حجَّهم.

وفي هذه النبذة المشار إليها مشاركةٌ في القيام بهذا الواجب العظيم؛ جَزَى اللهُ مؤلِّفها الشيخ عبد الرزاق خيرَ الجزاء، ونفع بجهوده التي بذلها فيها وفي غيرها. وصلى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٦/٨/١٤٢٠ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير النبيين وإمام المرسلين،
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإنَّ الحجَّ مدرسة إيمانية عظيمة، يتلقَّى فيه المسلمون الدروسَ
العظيمة والفوائد الجليلة والعبر النافعة في شتى المجالات، وفي جميع أبواب
الدين (العقائد والعبادات والسلوك...)، ويتفاوتون في قوة تحصيلها وحسن اكتسابها
تفاوتاً عظيماً بين مقلٍّ ومستكثرٍ، والتوفيق بيد الله وحده.

ولذا؛ رأيتُ أنَّ من المفيد استخلاصَ جملة من الدروس العظيمة المستفادة
في الحج، والمتعلقة بجانب الاعتقاد خاصة؛ إذ هو الأساس والأصل الذي تُبنى
عليه الأعمال، ويقوم عليه الدين كله، وهي مجرد إشارة إلى بعض الدروس المستفادة
فيه، وإلا فإنَّ ما يُستفاد فيه من دروس وفوائد أمر يفوق الحصر، ولا يبلغه العدُّ.

وقد بلغ عدد هذه الدروس المستخلصة هنا ثلاثة عشر درساً، راعيت أن
تكون متجانسة في حجمها وطريقة طرحها، والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد وأن
يتقبَّله بقبول حسن، إنَّه نعم المجيب.

الأول: بيان أن الحج مدرسة عظيمة

لا ريب أن الحجَّ من أفضل الطاعات وأجلِّ القُرْبَات التي يتقرَّب بها المسلم إلى ربِّه تعالى، بل هو عبادةٌ من العبادات التي افترضها الله وجعلها إحدى الدعائم الخمس التي يركز عليها الدين الإسلامي الحنيف، والتي بيَّنها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجَّ، وصوم رمضان»^(١). وثبت عنه ﷺ في أحاديث كثيرة ترغيب أُمَّته في الحج وحُثُّهم على هذه الطاعة العظيمة، ويبيِّن لهم ما يَغنمون في الحج من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ جزيلٍ وغفرانٍ للذنوب.

روى مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال لعمر بن العاص رضي الله عنه: «أما عَلِمْتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»^(٢).

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق؛ رَجَعَ كيوم ولدته أمُّه»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨)، ومسلم (رقم ١٦).

(٢) صحيح مسلم (رقم ١٢١).

(٣) صحيح البخاري (رقم ١٥٢١)، ومسلم (رقم ١٣٥٠).

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(١).

وقد حج -صلوات الله وسلامه عليه- بالناس في السنة العاشرة من الهجرة النبوية حجته التي رسم فيها لأُمَّته عملياً كيفية أداء هذه الفريضة العظيمة، وحثَّ على تلقي كل ما يصدر منه ﷺ من أعمال وأقوال، فقال: «خذوا عني مناسككم لعلِّي لا أراكم بعد عامي هذا»^(٢)، فسُميت حجة الوداع، وفيها نزل على رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إنَّ الواجب على كل مسلم قديم لأداء هذه الطاعة العظيمة أن يجتهد تمام الاجتهاد في معرفة هدي النبي ﷺ في الحج وكيفية أدائه لمناسكه ليسلك منهجه وليسير على طريقته وليقتفي أثره وليأخذ عنه مناسكه، وليتأتى له بذلك الإتيان بالحج على التمام والكمال؛ إذ لا كمال في هذه الطاعة وفي غيرها من الطاعات إلا بالاقتفاء لأثار الرسول الكريم ﷺ والسير على منهاجه.

لا ريب أن كل مسلم على وجه الأرض تتحرك نفسه في هذه الأيام المباركة شوقاً لأداء هذه الطاعة العظيمة، وطمعاً في تحقيق هذا النسك الجليل، ومحبةً لرؤية بيت الله العتيق؛ إذ إنَّ المسلمين جميعهم صلتهم بيت الله الحرام وثيقة، وهي تنشأ منذ بدء انتماء المسلم لدين الإسلام، وتستمر معه ما بقيت روحه في جسده.

(١) صحيح مسلم (رقم ١٣٤٩).

(٢) صحيح مسلم (رقم ١٢٩٧)، و«السنن الكبرى» للبيهقي، واللفظ له.

فالصبي الذي يولد في الإسلام أوّل شيء يطرقُ سمعه من فرائض الإسلام أركانه الخمسة التي أحدها حج بيت الله الحرام. والكافر إذا أسلم، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أوّل ما يُوجّه إليه من فرائض الإسلام بقية أركانه بعد الشهادتين وهي: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام. وأوّل أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلوات الخمس التي افترضها الله على عباده في كل يوم وليلة.

وجعل استقبال بيت الله الحرام شرطاً من شروطها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فصلة المسلم ببيت الله الحرام مستمرة في كل يوم وليلة يستقبله مع القدرة في كل صلاة يصلّيها فريضة كانت أو نافلة كما يستقبله في الدعاء^(١). ولهذا؛ فإنّ هذه الصلة الوثيقة التي حصل بها هذا الارتباط بين قلب المسلم وبيت ربه بصفة مستمرة تدفع بالمسلم ولا بدّ إلى الرغبة الملحة في التوجّه إلى ذلك البيت العتيق ليمتّع بصره بالنظر إليه وليؤدّي الحج الذي افترضه الله عليه إذا استطاع إليه سبيلاً.

فالمسلم متى استطاع الحج بادر إليه أداءً لهذه الفريضة ورغبة في مشاهدة البيت الذي يستقبله في جميع صلواته ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) انظر: «الحج فضله وفوائده»، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن البدر - حفظه الله -، ضمن مجموع: «قبس من هدي الإسلام» (ص ١٢٨-١٣٣).

ولهذا؛ فإن الواجب عليك أخي الحاج أن تحمد الله كثيراً على نعمته عليك العظيمة، بالتوفيق لأداء هذه الطاعة، والقُدوم لتحقيق هذه العبادة، والتشرف برؤية بيت الله العتيق قبله المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن تجتهد في تكميل أعمال الحج على أحسن وجه وأكمل حال دون إخلالٍ أو تقصيرٍ ودون إفراطٍ أو تفريطٍ.

بل تكون على هَدْيٍ قاصِدٍ وطريقٍ مستقيمٍ مُتَّبِعًا في ذلك لرسولك الكريم ﷺ، تبتغي بعملك هذا مرضاة ربك، ونيل ثوابه، ومغفرة الذنوب، ولتعود إلى بلادك بعد هذه الرحلة المباركة وذنبك مغفوراً، وسعيك مشكوراً، وعملك صالحاً مُتَقَبَّلاً مبروراً، بحياة جديدةٍ صالحةٍ مليئةٍ بالإيمان والتقوى، عامرةٍ بالخير والاستقامة، زاخرةٍ بالجد والاجتهاد في طاعة الله.

إنَّ الحج فرصةٌ عظيمةٌ للتزود فيه من زاد الآخرة بالتوبة إلى الله والإنابة إليه والإقبال على طاعته والسعي في مرضاته، ومن خلال الحج ومناسكه يتهيأ للحاج فُرْصٌ كثيرةٌ لتلقي الدروس النافعة والعبر المؤثرة والفوائد الجليلة والثمار الكريمة اليانعة في العقيدة والعبادة والأخلاق بدءاً بأول عملٍ من أعمال الحج يقوم به العبد في الميقات وانتهاءً بآخر عملٍ من أعمال الحج بطواف سبعة أشواطٍ يودَّع فيها الحاج بيت الله الحرام.

وهو بصدقٍ مدرسةٌ تربويَّةٌ إيمانيةٌ عظيمةٌ يتخرَّج فيها المؤمنون المتقون، فيشهدون في حجبهم المنافع العظيمة والدروس المتنوعة والعظات المؤثرة، فتحيا بذلك القلوب ويتقوى الإيمان.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

ومنافع الحج لا تُحصى وفوائده لا تُستقصى، وعبره ودروسه الاستفادة منه لا يحاط بها، وسوف نقف - بإذن الله تعالى - من خلال هذه الرسالة على جملة طيبة ومجموعة نافعة من الدروس العظيمة والمنافع الجليلة المستفادة من حج بيت الله الحرام، وبالله وحده التوفيق.



الثاني: في بيان جملة من منافع الحج

تقدّم الكلام على فضل الحج ورفعة مكانته وأنه من أجلّ العبادات وأعظم القُرَبات وأنه ركنٌ من أركان الإسلام العظيمة وأساس من أُسسهِ المتينة التي بها يقوم وعليها يُبنى، وتقدم الإشارة إلى أن الحج فيه من الفوائد والمنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصيه المُحصون ولا يقدر على عدّه العادُّون.

وفي ذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٧-٢٩].

فالحجُّ مليءٌ بالمنافع العظيمة الدينية والدنيوية.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ هي لام التعليل وهي متعلّقة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية؛ أي: إن تؤدّن فيهم بالحج يأتوك مشاة وركبانا لأجل أن يشهدوا؛ أي: يحضروا منافع لهم والمراد بحضورهم المنافع: حصولها لهم.

وقوله تعالى في الآية: ﴿مَنَافِعَ﴾ هو جمعٌ منفعة، ونكرٌ المنافع؛ لأنّه أراد منافع مختصةً بهذه العبادة دينيةً ودنيويةً لا توجد في غيرها من العبادات مجتمعة.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، قال: «منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة، فأما منافع الآخرة فرضوان الله وَجَلَّ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البُدن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات»^(١).

وروى عبد الرزاق عن مجاهد رحمته الله في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، قال: «التجارة وما أرضى الله من أمر الدنيا والآخرة»^(٢).
وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن مجاهد رحمته الله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، قال: «الأجر في الآخرة والتجارة في الدنيا»^(٣).
فالمنافع التي يُحصِّلها الحجيج ويَجْنونها في حجِّهم لبيت الله الحرام عديدة ومتنوعة:

منافع دينية من العبادات الفاضلة والطاعات الجليلة التي لا تكون إلا فيه.
ومنافع دنيوية من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، كما قال تعالى في سياق آيات الحج من سورة البقرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ويقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾»^(٤).

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧/٦).

(٢) «تفسير عبد الرزاق» (٣٦/٢).

(٣) «جامع البيان» (١٤٧/١٠).

(٤) رواه أبو داود (رقم ١٧٣٤)، ورواه وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٥٣٤/١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية أنه قال: «لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده»^(١).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمته الله: «وقد أطبق علماء التفسير على أن معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أنه ليس على الحاج إثم ولا حرج إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيام الحج إن كان ذلك لا يشغله عن شيء من أداء مناسكه»^(٢).

ومن المنافع الدنيوية أيضاً للحجاج ما يصيبونه من البدن والذبائح كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].
إلا أن ما يحصله الحاج من منافع دينية في حجه لا تقارن بهذه المنافع الدنيوية؛ إذ في الحج ما هو أشرف من ذلك من الأجور العظيمة والثواب الجزيل ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات وغير ذلك مما لا يحصى من الفوائد الدينية العظيمة التي ينالها الحاج إن كان متقياً لله في حجه بامتنال أو امره واجتناب نواهيه.
وأي خير أعظم وأي ربح أجل من أن يخرج الحاج من حجه كيوم ولدته أمه بلا إثم ولا خطيئة كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣]؟!

وقد اختار ابن جرير في تفسيره لهذه الآية بعد أن ذكر أقوال أهل العلم في معناها أن المراد: «فمن تعجل في يومين من أيام منى الثلاثة، فنفر في اليوم الثاني فلا إثم عليه، لحط الله ذنوبه إن كان قد اتقى الله في حجه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده، ومن

(١) رواه ابن جرير (٢/ ٢٨٢).

(٢) «أضواء البيان» (٥/ ٤٨٩).

تأخر إلى اليوم الثالث... فلا إثم عليه لتكفير الله له ما سلف من آثامه وإجرامه إن كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده»^(١).

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تَظَاهَرَ الأخبار عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى ومن ذلك قوله ﷺ: «من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق؛ خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٢).

وقوله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٣).

وقوله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»^(٤).

فهذه النصوص تدل على أن من حج فقضاه بحدوده على ما أمره الله فهو خارج من ذنوبه كما قال -جل وعلا-: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣]؛ أي: اتقى الله في حجه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولا ريب أن هذه فضيلة عظيمة ومنفعة جليلة تسارع في نيلها القلوب المؤمنة وتطمع في تحصيلها النفوس الصادقة.

فلله ما أجلها من فضيلة وأعظمها من منفعة عندما ينقلب الحاج إلى بلده بعد قضائه لحجه وذنبه مغفور، قد خرج من ذنوبه وآثامه طاهراً نقيّاً كيوم ولدته أمه ليس عليه ذنب ولا خطيئة إذا كان متقياً ربّه في حجه.

(١) «جامع البيان» (٢/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٥٢١)، ومسلم (رقم ١٣٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٩).

(٤) أخرجه النسائي (٥/ ١١٥)، والطبراني في «الكبير» (رقم ١١١٩٦)، وصححه الألباني

في «الصحيح» (رقم ١٢٠٠).

بل إنَّ الربَّ سبحانه من عظيم كرمه وجميل إحسانه بعباده الحجيج يباهي ملائكته بحجاج بيته الحرام عندما يقفون جميعهم على صعيد عرفة ويقول: «انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا ضاحين من كل فج عميق أشهدكم أنني قد غفرتُ لهم»^(١).

وبهذا يتبين أنَّ الحاجَّ يعود من حجه بأكبر ربح وأعظم غنيمة ألا وهي مغفرة ربِّه لذنبه، فيبدأ بعد الحج حياة جديدة صالحة مليئة بالإيمان والتقوى عامرة بالخير والاستقامة والمحافظة على الطاعة، إلَّا أنَّ حصولَ هذا الأجر مشروطٌ كما تقدم بأن يأتي بالحج على وجه صحيح بإخلاص وصدق وتوبة نصوح مع مجانية لما يُخلُّ به من رفثٍ وفسوقٍ، فإذا كان كذلك جبَّ ما قبله وخرج منه الحاج بتلك الحال الرائعة، كيوم ولدته أمه بلا إثم ولا خطيئة.



(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحة» (رقم ٢٨٤٠)، وضعفه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (رقم ٦٧٩).

وللجملة الأولى أعني إلى قوله: (غبرًا) منه شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند أحمد (٢/ ٢٢٤)، ومن حديث أبي هريرة عند أحمد أيضًا (٢/ ٣٠٥)، وابن خزيمة (رقم ٢٨٤٠)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ٤٦٥) وغيرهم.

الثالث: الدلالات العقيدية في الإهلال بالتوحيد

إنَّ من أجَلِّ الدروس العظيمة التي يفيدها المسلم في حجِّه لبیت الله الحرام وجوب إخلاص العبادات كلّها لله وحده لا شريك له، فالمسلم يبدأ حجَّه أول ما يبدأ بإعلان التوحيد ونبذ الشرك، قائلاً: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

يقولها ويرفع بها صوته، وهو في الوقت نفسه مستشعر ما دلت عليه من وجوب إفراذ الله وحده بالعبادة والبعد عن الشرك، فكما أنَّ الله متفرد بالنعمة والعطاء لا شريك له، فهو متفرد بالتوحيد لا ندَّ له، فلا يدعى إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يستغاث إلا به، ولا يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة إلا له. وكما أنَّ العبد مُطالب بقصد الله وحده في الحج، فهو مُطالب بقصده وحده في كلِّ عبادة يأتيها وكلِّ طاعة يتقرَّب بها، فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله أشرك بالله العظيم، وخسر الخسران المبين، وحبط عمله، ولم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

لقد جاء الإسلام بهذا الإهلال العظيم، الإهلال بتوحيد الله وإخلاص الدين له والبعد عن الشرك كلّ صغيره وكبيره، دقيقه وجليله، بينما كان المشركون عبّادُ الأصنام والأوثان يهلّون في إحرامهم بالحج بالشرك والتنديد. فكانوا يقولون في تلييتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه

وما ملك»، فيدخلون مع الله في التلبية ألهمهم الباطلة، ويجعلون ملكها بيده، وهذا هو معنى قول الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

أي: ما يؤمن أكثرهم بالله بأنه الخالق الرازق المدبر إلا وهم مشركون معه في العبادة أو ثناء لا تملك شيئاً؛ وأصناماً لا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع، بل لا تملك من ذلك شيئاً لنفسها فضلاً عن أن تملكه لغيرها.

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون». وعن عكرمة أنه قال: «تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره». وعن مجاهد قال: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره».

وعن ابن زيد قال: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وِءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا^(١).

(١) «جامع البيان» (٨/ ٧٧-٧٨).

لقد كان المشركون زمن النبي ﷺ يقرُّون بأنَّ خالقهم ورازقهم ومدبِّر شئونهم هو الله، ثم هم مع هذا الإقرار لا يُخلِّصون الدين له، بل يشركون معه غيره في العبادة من الأشجار والأحجار والأصنام وغيرها.

وقد جلى الله هذا الأمرَ وبَيَّنَّه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، كقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي «تفسيره»: «يقول تعالى مقررًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ، وَمُقَدِّرُ أَجَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهَا، وَاخْتِلَافُ أَرْزَاقِهِمْ فَفَاوَتْ بَيْنَهُمْ، فَمِنْهُمْ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَصْلَحُ كُلًّا مِنْهُمْ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَنَى مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ الْمُسْتَبْدُ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَفَرِّدُ بِتَدْبِيرِهَا.

فإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ يُعْبَدُ غَيْرُهُ؟ وَلِمَ يُتَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِهِ؟
فكما أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مُلْكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدَ فِي عِبَادَتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يَقَرُّرُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ بِالاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ: لَيْلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكُ» اهـ^(١).
وهذا المعنى يكثر في القرآن الكريم، الاستدلال على الكفار باعترافهم برُبوبية الله -جل وعلا- على وجوب توحيدِهِ في عِبَادَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَلِذَلِكَ يَخَاطَبُهُمْ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِ.
فإذا أَقْرَأُوا بِرُبُوبِيَّتِهِ احْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِمْ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِأَن يُعْبَدَ وَحْدَهُ،

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٠١).

ووبَّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأنَّ من اعترف بأنه الرب وحده لزمه أن يخلص العبادة كُلَّها له.

وبهذا يتبين أن الاعتراف بأنَّ الله هو الخالق الرازق المنعم المتصرِّف المدبر لشئون الخلق لا يكفي في التوحيد، ولا يُنْجِي من عذاب الله يوم القيامة ما لم تُخلص العبادة كُلَّها لله وحده، فالله لا يقبل من عباده توحيدهم له في الربوبية إِلَّا إذا أفردوه بتوحيد العبادة، فلا يتخذون له ندًّا، ولا يدعون معه أحدًا، ولا يتوكلون إِلَّا عليه، ولا يصرفون شيئًا من العبادة إِلَّا له سبحانه فكما أنَّه سبحانه المتفرد بالخلق، فهو سبحانه المتفرد بجميع أنواع العبادة.

ولهذا؛ قال تعالى للذين صرفوا العبادة لغيره، مع أنَّهم يعلمون أنَّه خالقهم ورازقهم: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس رحمهما الله: «أي: لا تُشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنَّه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه»^(١).

وقال قتادة: «أي: تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أندادًا»^(٢).

إنَّ النِّعْمَةَ على أُمَّة الإسلام عظيمةٌ بهدايتهم إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والنِّعْمَةُ عليهم عظيمةٌ بتوفيقهم إلى الإلهال بتوحيد الله بعد أن كان غيرهم يهْلُ بالشرك والتنديد، فله الحمدُ سبحانه على توفيقه وإنعامه وهدايته حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا الكريمُ ويرضَى.

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٤).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٤).

الرابع: دلالة التلبية على التحذير من الشرك

تقدّم معنا بيان فضل التلبية وأنها مشتملة على الإهلال بتوحيد الله ﷻ، ونبذ الشرك؛ ولهذا قال الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ﷺ، كما في صحيح مسلم عندما وصف حجة النبي ﷺ قال: «أهْلٌ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»^(١).

فوصف ﷺ هذا الإهلال بأنه إهلالٌ بالتوحيد؛ لأنّ فيه الإخلاص لله ونبذ الشرك، وهذا يدلُّ أيضًا على أنّ هذه الكلمات -أعني كلمات التلبية- ليست ألفاظًا مجردة لا تدلُّ على معانٍ؛ بل لها معنى عظيم، ومدلول عميق، ألا وهو روح الدين وأساسه وأصله الذي ينبني عليه توحيد الله تعالى.

ولهذا؛ فإنّ الواجب على كلّ من أهلّ بهذه الكلمات العظيمة أن يستحضر ما دلّت عليه من معنى، وأن يعرف ما تضمّنته من دلالة؛ ليكون صادقًا في إهلاله، موافقًا كلامه حقيقة حاله، بحيث يكون مستمسكًا بالتوحيد، محافظًا عليه، مراعيًا لحقوقه، مجانبًا تمام المجانبة لنواقضه وما يضادّه من الشرك والتنديد، فلا يسأل إلّا الله، ولا يستغيث إلّا بالله، ولا يتوكّل إلّا على الله، ولا يطلب المدد والعون والنصر إلّا من الله، ولا يصرف أيّ نوع من أنواع العبادة إلّا لله وحده، الذي بيده سبحانه العطاء والمنع والقبض والبسط والنفع والضرر، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

(١) «صحيح مسلم» (رقم ١٢١٨).

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿النمل: ٦٢﴾.

والمسلم عندما يقول في تلييته: «لا شريك لك»، يجب أن يكون عالمًا بحقيقة الشرك، مُدرِّكًا لخطره، حَذِرًا تمام الحذر من الوقوع فيه، أو في شيء من أسبابه ووسائله وطرقه؛ إذ هو أعظم ذنب عَصِيَ الله به، ولهذا رُتِّبَ عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة ما لم يُرتَّب على غيره من الذنوب، من إباحة دماء أهله وأموالهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة جدًا، يحذر فيها الرب سبحانه عباده من الشرك به، ويبين لهم شدة خطره وعظم مغبته وسوء عاقبته على فاعله في الدنيا والآخرة.

فالشرك عاقبته وخيمته، ونهايته أليمته، وأخطاره جسيمة، ولا يربح فاعله من وارثه شيئًا إلا الخيبة والحرمان والمذلة والخسران، وهو أعظم ذنب عَصِيَ الله به؛ لأنه أظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره،

وعدلٌ غيره به؛ ولأنه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر، ومنافٍ له من كل وجه.
وفيه غاية المعاندة لرب العالمين والاستكبار عن طاعته، والذلُّ له؛ ولأنَّ
فيه تشبيهاً للمخلوق بالخالق - تعالى وتقدس - وكيف يُجعلُ من لا يملك لنفسه
ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلقُ
كلُّه، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله.

فأزمنة الأمور بيده سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم
يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا
ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحذر من الشرك أشدَّ الحذر، وأن يخاف من
الوقوع فيه أشدَّ الخوف، فهذا نبيُّ الله وخليفه إبراهيم عليه السلام يقول في دعائه:
﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

فخاف عليه السلام من ذلك ودعا ربَّه أن يعافيه وبنيه من عبادتها، فإذا كان إبراهيم
الخليل عليه السلام يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنُّك بغيره؟!
كما قال إبراهيم التيمي رحمته الله: «ومن يأمن من البلاء بعد إبراهيم»^(١).
فهذا ولا ريب يوجب للقلب الحي الخوف من الشرك وشدة الاحتراز منه،
وسؤال الله دوماً وأبداً العافية من الوقوع فيه.
وهذا أيضاً يتطلب من العبد المؤمن أن يكون عالماً بحقيقة الشرك وأسبابه،
ومبادئه وأنواعه؛ لئلا يقع فيه.

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٢٢٨).

ولهذا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني». رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»^(١).

وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شرٌّ، فإمّا أن يقع فيه، وإما ألا ينكره كما ينكره الذي عرفه.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»^(٢).

إنَّ البعد عن الشرك كله وإخلاص التوحيد لله أصلٌ يجب أن تُبنى عليه كلُّ طاعة يتقرب العبد بها إلى الله تعالى، الحجُّ وغيره.

وقد قال الله تعالى في سورة الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْأَمْرَ أَفْقَرٍ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٢٧-٣١].

فحذّر سبحانه في هذا السياق الكريم المتعلق بالحج من الشرك، وأمر

(١) انظر: «صحيح البخاري» (رقم ٣٦٠٦)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٨٤٧).

(٢) انظره مع تعليق مفيد عليه في «الفوائد» لابن القيم (ص ٢٠١).

باجتنابه، ويبيّن قبحه وسوء عاقبته، وأنّ فاعله بفعله له كأنّما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، كما أنه سبحانه قد أمر نبيّه إبراهيم عليه السلام في الآية التي قبل هذه الآيات بتطهير البيت بعد أن بوّاه مكانه، ونهاه عن الإشراك بالله، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

فكانت بذلك الآيات المتعلقة بالحج محفوفةً بالتحذير من الشرك، والنهي عنه، وبيان سوء عاقبته، مما يدلُّ أعظم دلالة على شناعة الشرك وعظم خطورته، حمانا الله وإياكم منه، ورزقنا الإخلاص في القول والعمل.



الخامس: في بيان جملة من الفوائد المستفادة من التلبية

إن لكلمات التلبية شأنًا عظيمًا ودلالاتٍ عميقةً، وقد سبق الحديثُ عن دلالات كلمات التلبية على تحقيق التوحيد ونبذ الشرك، وهي بلا ريب كلمات عظيمة تشتمل على معانٍ جليّةٍ، ومقاصد نبيلةٍ، وفوائد جمّةٍ، وقد نبّه أهل العلم على عظم شأن هذه الكلمات وعظم ما اشتملت عليه من منافع وفوائد. وقد تناول هذا الجانب بوفاء وزيادة في البسط والبيان الإمام العلامة ابن القيم في كتابه «تهذيب السنن»^(١).

قال رحمه الله: «وقد اشتملت كلمات التلبية على قواعد عظيمة وفوائد جليّة...». ثم ذكر رحمه الله إحدى وعشرين فائدة، ولعلّي في هذا المقام ألخص جملةً طيبةً من هذه الفوائد الجليّة التي اشتملت عليها التلبية مما ذكره رحمه الله: فمن هذه الفوائد: أنّ قولك: «ليبيك»، يتضمّن إجابة داعٍ دعاك، ومنادٍ ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلّم ولا يدعو من أجابه، ففي هذا إثبات صفة الكلام لله.

ومنها: أنّها تتضمّن المحبة، ولا يُقال لبيك إلّا لمن تحبّه وتعظمه، ولهذا قيل في معناها: أنا مواجه لك بما تحب، وأنّها من قولهم: امرأة لبّة، أي: محبة لولدها.

(١) «تهذيب السنن» (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

ومنها: أن التلبية تتضمن التزام دوام العبودية، ولهذا قيل: هي من الإقامة؛ أي: أنا مقيم على طاعتك.

ومنها: أنها تتضمن الخضوع والذل؛ أي: خضوعاً بعد خضوع، من قولهم: أنا مُلَبٌّ بين يديك؛ أي: خاضع ذليل.

ومنها: أنها تتضمن الإخلاص، ولهذا قيل: إنها من اللب، وهو الخالص.

ومنها: أنها تتضمن الإقرار بسمع الرب تعالى؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل لبيك لمن لا يسمع دعاءه.

ومنها: أنها تتضمن التقرب من الله، ولهذا قيل: إنها من الإلباب، وهو التقرب. ومن هذه الفوائد: أنها جعلت في الإحرام شعاراً لانتقال من حال إلى حال، ومن منسك إلى منسك، كما جعل التكبير في الصلاة سبباً^(١) للانتقال من ركن إلى ركن، ولهذا كانت السنة أن يُلبّي حتى يشرع في الطواف فيقطع التلبية، ثم إذا سار لبي حتى يقف بعرفة فيقطعها، ثم يلبّي حتى يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبّي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطعها.

فالتلبية شعار الحج والتنقل في أعمال المناسك، فالحاج كلما انتقل من ركن إلى ركن قال: «لبيك اللهم لبيك»، كما أن المصلي يقول في انتقاله من ركن إلى ركن: «الله أكبر».

فإذا حلّ من نسكه قطعها، كما يكون سلام المصلي قاطعاً لتكبيره. ومن فوائدها: أنها شعار التوحيد، ملّة إبراهيم عليه السلام، الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلّها والمقصود منها، ولهذا كانت التلبية مفتاح هذه العبادة التي يدخل فيها بها.

(١) في الأصل: «سبغاً»، وهو تصحيف.

ومنها: أنَّها متضمَّنة لمفتاح الجنة وباب الإسلام الذي يُدخل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنه لا شريك له.

ومنها: أنها مشتملة على الحمد لله الذي هو من أحب ما يتقرب به العبد إلى الله، وأول من يُدعى إلى الجنة أهله، وهو فاتحة الصلاة وخاتمتها.

ومنها: أنها مشتملة على الاعتراف لله بالنعمة كلها، ولهذا عرَّفها باللام المفيدة للاستغراق؛ أي: النعمُ كُلُّها لك، وأنت موليتها والمنعم بها.

ومنها: أنها مشتملة على الاعتراف بأن الملك كله لله وحده، فلا ملك على الحقيقة لغيره.

ومن هذه الفوائد: أن التلبية متضمنة للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله وَجَلَّ، وهذا نوع آخر من الثناء عليه، غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العلية، فاجتماع الملك المتضمن للقدرة مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبته، فيه من العظمة والكمال والجلال ما هو أولى به، وهو أهله سبحانه. وفي ذكر العبد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه والتوجه بدواعي المحبة كلها إليه ما هو مقصود العبودية ولُبُّها.

ومن الفوائد: أن النبي ﷺ قال: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». وقد اشتملت التلبية على هذه الكلمات بعينها، وتضمَّنت معانيها.

ومن الفوائد أيضًا: أن كلمات التلبية متضمنة للرد على كل مبطل في صفات الله وتوحيده، فهي مبطله لقول المشركين على اختلاف طوائفهم ومقالاتهم، ومبطله لقول الفلاسفة ومن تأثر بهم من المعطلين لصفات الله التي

هي متعلق الحمد.

ومبطله لقول مجوس الأمة؛ القدريه الذين أخرجوا عن ملك الرب وقدرته أفعال عباده من الملائكة والجن والإنس، فلم يثبتوا له عليها قدرة، ولا جعلوه خالقاً لها، فمن علم معنى هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها باين جميع الطوائف المعطلة.

ومن الفوائد أيضاً: أن في إعادة الشهادة له بأنه لا شريك له لطيفة، وهي أنه أخبر أنه لا شريك له عقب إجابته بقوله: لبيك، ثم أعادها عقب قوله: «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لا شريك لك»؛ وذلك يتضمن أنه لا شريك له في الحمد والنعمة والملك، والأول يتضمن أنه لا شريك له في إجابة هذه الدعوة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فأخبر بأنه لا إله إلا هو في أول الآية، وذلك داخل تحت شهادته وشهادة ملائكته وأولي العلم، وهذا هو المشهود به، ثم أخبر عن قيامه بالقسط، وهو العدل، فأعاد الشهادة بأنه لا إله إلا هو مع قيامه بالقسط.

فهذه جملة من الفوائد العظيمة والقطوف الكريمة مما تضمنته هذه الكلمات الجليلة، كلمات التلبية، وهي ولا ريب تدل على أهمية العناية بفهم معاني هذه الكلمات، وأن حسن الاهتمام بذلك يعين العبد على الإتيان بهذه العبادة على أكمل وجه وأحسن حال.



السادس: في الطواف ببيت الله الحرام

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج عندما يصل إلى البيت العتيق ويقوم بتلك العبادة العظيمة: الطواف ببيت الله الحرام، ويرى الحجاج كلَّهم يقومون بذلك طاعة لله وامتنالاً لأمره ما يفيده في ذلك المقام من معرفة كبيرة بعظم شأن هذه العبادة وجلالة قدرها وقوة وقعها على القلوب المؤمنة، ولا سيما عندما يجتمع ذلك الكمُّ الكبير من المؤمنين بلباس واحد، وعلى هيئة واحدة، مستديرين حول بيت الله، مسبحين ومهللين ومكبرين، يدعون ربهم الكريم ويناجونه ويسألونه ويبتهلون إليه.

كلُّ واحد منهم يطوف أشواطاً سبعة، جميعهم يتدثون من الحجر الأسود ويتنهون إليه، والطواف هو الدوران حول الكعبة سبع مرات تعبدًا لله بنية الطواف، مبتدئًا بالحجر الأسود ومنتهيًا إليه، جاعلاً الكعبة عن يساره، والمسلمون إنما يفعلون ذلك طاعة لله واتباعاً لرسول الله ﷺ، وحظُّ كل واحد منهم من الكمال في هذه العبادة هو بحسب حظِّه من المتابعة للرسول الكريم ﷺ.

والطواف هو أول عمل يقوم به المسلم عندما يصل إلى مكة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنه توضأ ثم طاف»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (رقم ١٦١٤)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٢٣٥).

وروى مسلم في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صفة حجة النبي ﷺ وفيه: «... حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً»^(١).

وروى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ومشى أربعة، ثم سجد سجدتين [أي: صلى ركعتين]، ثم يطوف بين الصفا والمروة»^(٢).
والأدلة على مشروعية الطواف ببيت الله الحرام متظافرة في الكتاب والسنة، وتواتر فيها النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا فيه دلالة على أن هذا العمل قربة إلى الله وطاعة يحبها الله من عباده شرعها لهم وأمرهم بها ورغبتهم في فعلها، وجعلها منسكاً من مناسك قصد بيته الحرام.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٧-٢٩].

وقد عهد الله إلى نبيه وخليله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل عليهما السلام أن يقوموا بتطهير البيت وتشيد أركانه وتهيئته للطائفين والقائمين والركع السجود.

قال الله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ٨٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ١٦١٦)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٢٦١).

وَطَهَّرَ بَيْتَ لِبَطَائِفِ الْفَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ الشُّجُودَ ﴿[الحج: ٢٦].

ومما تقدّم يتبيّن أنّ الطّواف بالبيت العتيق عبادة جليّة وطاعة عظيمة، يحبها الله من عباده، وشرعها لهم وأمرهم بها، ورَتَّبَ لهم على فعلهم لها الثواب العظيم والأجر الجزيل؛ بل إن الطواف بالبيت ركن من أركان الحج، كما أنّه أيضاً ركن من أركان العمرة، وهذا يدل على عظم شأن الطواف عند الله ورفيع مكانته؛ إذ لا يتم الحج إلا به، ولا تتمّ العمرة إلا به.

ثم إن المسلم في هذا المقام العظيم يتلقّى درساً عظيماً، وفائدة جليّة، وهو أنّ هذه العبادة الجليّة - أعني: الطواف - إنما شرعت في هذا الموطن فقط حول بيت الله الحرام؛ كما دلت على ذلك النصوص المتقدمة من الكتاب والسنة وغيرها من النصوص، وهي كثيرة جداً.

وبهذا يعلم المسلم أنّ الطواف في غير هذا الموطن في أيّ مكان من الدنيا لا يُشرع، وليس هناك ما يدلّ على مشروعته، بل هو ضلال وباطل، وتسوية لبيوت المخلوقين ببيت الخالق الذي أمر سبحانه بإقامته لذكره وطاعته، والتوجه إليه في عبادته سبحانه، ولا خلاف بين أهل العلم في بطلان الطواف في أي بقعة من البقاع، وفي أي مكان من الأمكنة سوى بيت الله الحرام، فلا يجوز الطواف حول القباب ولا القبور ولا الأضرحة ولا الأشجار ولا الأحجار ولا غيرها.

والنقول عن أهل العلم في هذا الباب كثيرة جداً، ولعلّي أشير إلى بعض كلامهم في ذلك بحسب ما يسمح به هذا المقام.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «المجموع شرح المذهب»: «ولا يجوز أن يُطاف بقبره رَحِمَهُ اللهُ... - وذكر أموراً ثم قال -: ولا يُعْتَرَّ بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإن الاقتداء والعمل إنّما يكون بالأحاديث وأقوال العلماء، ولا يُلتفت

إلى محدثات العوام وغيرهم وجهالاتهم.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١)،

وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبوري عيداً، وصلوا عليّ، فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم». رواه أبو داود بإسناد صحيح^(٣).

وقال الفضيل بن عياض رحمته الله ما معناه: اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين.

ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة، فهو من جهالته وغفلته؛ لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع، وكيف يُبتغى الفضل في مخالفة الصواب». اهـ كلامه رحمته الله^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وقد اتفق المسلمون على أنّه لا يُشرع الطواف إلّا بالبيت المعمور، فلا يجوز الطواف بصخرة بيت المقدس، ولا بحجرة النبي ﷺ، ولا بالقبة التي في جبل عرفات، ولا غير ذلك»^(٥).

وقال رحمته الله: «ليس في الأرض مكان يُطاف به كما يُطاف بالكعبة، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شرٌّ ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير

(١) «صحيح البخاري» (رقم ٢٦٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٧١٨).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم ١٧١٨).

(٣) «سنن أبي داود» (رقم ٢٠٤٢).

(٤) «المجموع شرح المذهب» (٨/٢٠٦-٢٠٧).

(٥) «الفتاوى» (٤/٥٢٢).

الكعبة، فإن النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة صَلَّى بالمسلمين ثمانية عشر شهراً إلى بيت المقدس، فكانت قبلة المسلمين هذه المدة، ثم إن الله حول القبلة إلى الكعبة، وأنزل الله في ذلك القرآن كما ذكر في سورة البقرة، وصَلَّى النبي ﷺ والمسلمون إلى الكعبة وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء. فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يَصَلِّي إليها فهو كافر مرتدٌ يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، مع أنها كانت قبلةً، لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتخذها مكاناً يُطاف به كما يطاف بالكعبة، والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال...». إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللهُ (١).

وبهذا التحقيق الذي ذكره الإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من أهل العلم يتبين عِظَمُ فساد الطواف بأي مكان سوى بيت الله الحرام الذي أذن الله بالطواف حوله وشدة خطره.

وأما ما يفعله بعض الجهال من الطواف حول القبور أو القباب أو الأضرحة أو نحو ذلك فكل ذلك ليس من دين الله؛ بل هو من وحي الشيطان ومن تشريع إبليس، وإلا فأين في الكتاب والسنة: فليطُوفوا بقبر فلان أو بضريح فلان أو نحو ذلك، تعالى الله عما يصفون، وسبحان الله عما يشركون.



(١) «الفتاوى» (٢٧/ ١٠-١١).

السابع: تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني

كان الحديث فيما سبق عن فضل الطواف ببيت الله الحرام، تلك العبادة العظيمة والطاعة الجليلة التي هي ركن من أركان الحج والعمرة، وأنها إنما تُشرع في هذا المكان فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]. فلا يجوز الطواف بالقباب أو القبور أو الأضرحة وغيرها؛ لمصادمة هذا الأمر لأصول الشريعة ولمخالفته لحقيقة التوحيد، ولما فيه من تشريك المخلوق وتسويته بالخالق سبحانه.

وقد مضى الحديث عن هذا الجانب مفصلاً بعض الشيء، وأمّا الحديث هنا فسيكون بإذن الله عن درس آخر وفائدة أخرى يفيدها المسلم حينما يصل إلى بيت الله الحرام ليطوف به؛ إذ يُشرع له في هذا المقام تقبيل الحجر الأسود، واستلام الركن اليماني طاعة لله واتباعاً لرسول الله ﷺ، وقد وردت أدلة عديدة فيها بيان مشروعية ذلك، وأن النبي ﷺ فعله عندما قدم بيت الله الحرام.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود أول ما يطوف يخبُّ ثلاثة أطواف من السبع»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (رقم ١٦٠٣)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٢٦١).

وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى الحجر فاستلمه، ثم مشى على يمينه، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً...»^(١). وهكذا المسلمون يُقبلون الحجر من بعده أتباعاً له ﷺ، واقتداء بهديه ولزوماً لسنته، لا لاعتقاد منهم أن الحجر الأسود ينفع ويضر، أو يعطي ويمنع. ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قبل الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت النبي ﷺ يقبل ما قبلتك». رواه البخاري ومسلم^(٢).

قال ابن جرير الطبري رحمته الله: «إنما قال ذلك عمر؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظنَّ الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباعٌ لفعل رسول الله ﷺ؛ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت تعتقده في الأوثان». اهـ كلامه رحمته الله^(٣).

أما ما يروى من حديث أبي سعيد: أن عمر لما قال هذا قال له علي بن أبي طالب: «إنه يضر وينفع»، وذكر أن الله لما أخذ الميثاق على ولد آدم كتب ذلك في رقٍّ وألقمه الحجر، قال: وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق، يشهد لمن استلمه بالتوحيد».

فإن هذا لا يثبت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «وفي إسناده أبو هارون العبدى، وهو ضعيف جداً»^(٤).

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ١٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ١٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٢٧٠).

(٣) نقله الحافظ في «الفتح» (٣/ ٤٦٣).

(٤) «فتح الباري» (٣/ ٤٦٢).

فأبو هارون هذا راوي هذا الأثر متروك الحديث عند أهل العلم، ومنهم من كذَّبه، قال النسائي فيه: «متروك الحديث». وقال حماد بن زيد: «كان أبو هارون العبدى كذاباً، بالغداة شيء وبالعشي شيء».

وقال الجوزجاني: «كذاب مفتر». وقال ابن حبان: «كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه، لا يحل كُتِبَ حديثه إلا على جهة التعجب»^(١)، فكيف يعتدُّ برواية من هذه حاله عند أهل العلم.

ثم إنَّ المشروع هو تقبيل الحجر الأسود فقط أو استلامه باليد إن لم يتمكن من التقبيل، أو الإشارة إليه إن لم يتمكن من الأمرين، وكذلك يُشرع استلام الركن اليماني.

ففي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «لم أرَ رسول الله ﷺ يستلم من البيت إلا الركنين اليمانيين»^(٢). وبهذا يُعلم أنه لا يُشرع استلام شيء من البيت سوى الركنين اليمانيين، وهما الحجر الأسود والركن اليماني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «ولا يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين دون الشاميين، فإن النبي ﷺ إنما استلمهما خاصة؛ لأنهما على قواعد إبراهيم، والآخران هما داخل البيت، فالركن الأسود يُستلم ويُقبَّل، واليماني يُستلم ولا يُقبَّل، والآخران لا يُستلمان ولا يُقبَّلان.

والاستلام هو المسح باليد، وأما سائر جوانب البيت ومقام إبراهيم وسائر ما في الأرض من مساجد وحيطانها ومقابر الأنبياء والصالحين كحجرة نبينا ﷺ

(١) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٢١/ ٢٣٢-٢٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ١٦٠٩)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٢٦٩).

ومغارة إبراهيم، ومقام نبينا ﷺ الذي كان يصلي فيه، وغير ذلك من مقابر الأنبياء والصالحين وصخرة بيت المقدس فلا تُستلم، ولا تُقبَّل باتِّفاق الأئمة»^(١).

ولهذا؛ فإن من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها المسلم في هذا المقام: أن التقبيل والاستلام لا يُشرع إلا في هذا المكان؛ إذ لم تأت النصوص بمشروعية هذا العمل في غير هذين الموضعين، والمسلم إنما يقوم بذلك طاعة لله واتباعاً لرسوله ﷺ؛ لا لاعتقاد منه أن فيهما جلب نفع أو دفع ضرر، كما سبق بيان ذلك من خلال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي قالها أمام الناس معلماً لهم وموجّهاً عندما قبّل الحجر الأسود.

وقد دلّت النصوص المتقدمة على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة، ودلت أيضاً على أن استلام مقام إبراهيم وتقبيله ليس بسنة؛ إذ لم يؤثر عن النبي ﷺ شيء من ذلك: وإذا كان هذا لا يُشرع في الكعبة نفسها، ومعلوم أن جميع المساجد والأماكن حرماتها دون الكعبة، ولا يُشرع في مقام إبراهيم الذي قال الله فيه: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومعلوم أن مقام إبراهيم الذي بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون هذا المقام الذي أمر الله باتخاذهُ مُصَلًّى، ومع ذلك لا يُشرع مسح ولا تقبيله لعدم وجود دليل على مشروعية ذلك، فإن سائر المقامات لا تُقصد للصلاة فيها، ولا يُتمسح بها، ولا يقبل شيء منها، بل لا يقبل ما على وجه الأرض إلا الحجر الأسود^(٢).

وأما ما يفعله بعض الجهّال الذين يتهافون على الأضرحة والقباب وغيرها،

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٢١).

(٢) انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (١٧/ ٤٧٦).

فيقبلونها ويتمسحون بها، ويتبركون بها ويطلبون منها المدد والعون ونحو ذلك، فكلُّ ذلك ليس من الدين في شيء، بل هو من الضلال المبين والبهتان العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وأما التمسح بالقبر -أي قبر كان- وتقبيله وتمريغُ الخدِّ عليه فمنهيٌّ عنه باتفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل هذا من الشرك»^(١). اهـ



(١) «الفتاوى» (٢٧ / ٩١ - ٩٢).

الثامن: في بيان وجوب لزوم السنة والأخذ بهدي الرسول ﷺ

إنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها الحاجُّ من حجِّهم لبيت الله الحرام معرفة أهمية السنة وضرورة التقيد بها في جميع أعمال الحج، وهذا يظهر جليًّا في حال كثيرٍ من الحجاج، فتراهم يُقبلون على مجالس الذكر وحلق العلم.

ويُكثرون من سؤال العلماء عن صفة الحج وكيفيته وأركانه وواجباته ونواقضه ومبطلاته باهتمام بالغ وتحرُّر دقيق، ولا سيما من يستشعر في حَجِّه قولَ النبي ﷺ: «خذوا عني مناسككم»^(١).

فالحج لا يكون مقبولاً عند الله إلا إذا أخذ المسلم فيه بطريقة الرسول ﷺ، ولزم فيه هديّه، واقتدى فيه بسنته دون إفراطٍ أو تفريطٍ، ودون غلوٍّ أو جفاءٍ، ودون زيادةٍ أو نقصانٍ.

فإذا ألزم المسلم نفسه في حجه بسنة النبي ﷺ، وقيدها بهديه؛ أفاد من ذلك أن لزوم السنة واتباع الهدي مأمور به في كل طاعة، فكما أنه متحتّم في الحج على كل أحد الأخذ بمناسكه ﷺ، فإنه متحتّم على كل أحد الأخذ بهديه في كل طاعة.

(١) تقدم تخريجه (ص ١٣).

ولهذا قال ﷺ في شأن الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).
وقال عموماً في شأن كل طاعة: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).
وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).
فكل عمل لا يكون على هدي الرسول ﷺ فإن الله لا يقبله كما دلَّ على ذلك منطوق قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».
فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع العلمية القولية أو من البدع العملية التعبدية، فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله ﷺ أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ولا رسوله ﷺ ولم يشرعه، فإنه يكون مردوداً على صاحبه غير مقبول.
كما أن الحديث يدل بمفهومه أن من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله، وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة من واجب ومستحب، فعمله مقبول وسعيه مشكور.
وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع فأوصنا.
فقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء

(١) «صحيح البخاري» (رقم ٦٣١).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم ١٧١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (رقم ٢٦٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٧١٨).

الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(١).

وقوله ﷺ في هذا الحديث: «كل بدعة ضلالة» هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

فكلُّ مَنْ أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه، فدين الله مبنيٌّ على أصليين عظيمين وأساسين متينين. أحدهما: ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له.

والثاني: ألا نعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبد بالأهواء والبدع.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]. وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله ﷺ من واجب ومستحب، لا نعبد بالأمر المحدث المبتدعة التي لا أصل لها في الدين ولا أساس لها من الشرع، وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده، فلا يُصَلَّى إلا لله، ولا يُصام إلا له،

(١) «سنن أبي داود» (رقم ٤٦٠٧)، و«جامع الترمذي» (رقم ٢٦٧٦)، و«سنن ابن ماجه» (رقم ٤٤، ٤٢).

ولا يَحُجُّ إِلَّا إِلَى بَيْتِهِ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَصْرَفُ شَيْءٌ مِنَ الْعِبَادَةِ إِلَّا لَهُ^(١).
وقد جمع الله بين هذين الأصلين العظيمين في قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح هو الموافق للشرع المطهر، والخالص هو الذي لم يُرد به إلا وجه الله، وهما ركنا العمل المتقبل، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنة.

فالواجب على كل مسلم يرجو لنفسه الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة أن يلزم نفسه بهدي الرسول ﷺ، وأن يقيد عمله بسنته، وأن يحذر تمام الحذر من مفارقة هديه، ومخالفة سنته واتباع غير سبيله؛ إذ هو - صلوات الله وسلامه عليه - القدوة والأسوة لأُمَّته.

كما قال الله تعالى في شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

أي: «هو أحق بهم في كل أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثره بما أراده من أموالهم وإن كانوا محتاجين إليها.

ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم لأنفسهم، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ٨٠-٨١).

وبالجملة؛ فإذا دعاهم النبي ﷺ بشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم»^(١).

ولا ريب أن هذا يتطلب من المسلم اجتهاداً في معرفة السنة، وبذلاً للوقت في سبيل معرفة هدي الرسول ﷺ، وذلك عن طريق سؤال أهل العلم والجلوس في حلق الذكر التي يبين فيها الحلال والحرام. وقراءة الكتب النافعة والمؤلفات المفيدة المشتملة على بيان ذلك، ليتسنى للمسلم بعد ذلك القيام بالعبادة على وجه صحيح ونهج سليم، موافقاً لهدي الرسول الكريم ﷺ.



(١) «فتح القدير» (٤/ ٢٦١).

التاسع: في يوم عرفة

لا ريب أنَّ يوم عرفة يومٌ عظيمٌ من أيام الله المباركة، ومجمعٌ كبيرٌ من مجامع الخير والإيمان والتقوى، وموسمٌ رحبٌ جليلٌ من مواسم الطاعة والعبادة، يوم تكثر فيه العَبَرَات، وتتوالى فيه الدعوات، وتنزل فيه الرحمات، وتُقال فيه العثرات، وتغفر فيه الزلَّات.

يوم رجاء وخشوع، وذل وخضوع، إنه يومٌ كريمٌ مباركٌ، لم تطلع الشمس على يومٍ أفضل منه، قد خُصَّ بمزايا كريمةٍ، وخصائصٍ عظيمةٍ، وصفاتٍ جليلةٍ، ليس من اليسر حصرها، ولا من الممكن استقصاؤها.

إنه اليوم الذي أكمل الله فيه لهذه الأمة الدين، وأتمَّ فيه لهم النعمة، إذ فيه نزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَارْتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

روى البخاري ومسلم عن طارق بن شهاب قال: «جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرأون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَارْتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال عمر: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي

نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشية عرفة في يوم الجمعة^(١).

وفي هذا اليوم الكريم المبارك يكثُر عِتْقَاءُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ، وَيَجُودُ فِيهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَبَاهِي بِهِم مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ.

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟!»^(٢).

قال ابن عبد البر رحمته الله: «وهذا يدل على أنهم مغفور لهم؛ لأنه لا يباهي بأهل الخطايا والذنوب إلا من بعد التوبة والغفران»^(٣).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يُباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً»^(٤).

قال الإمام ابن القيم رحمته الله في ميميته الشهيرة:

فلله ذاك الموقفُ الأعظمُ الذي	كموقف يوم العرض بل ذاك أعظمُ
ويدنوبه الجبار جلّ جلاله	يباهي بهم أملاكه فهو أكرمُ
يقول: عبادي قد أتوني محبةً	وإنني بهم برُّ أجود وأرحمُ
فأشهدكم أنني قد غفرتُ ذنوبهم	وأعطيتهم ما أملوه وأنعمُ

(١) «صحيح البخاري» (رقم ٤٦٠٦)، و«صحيح مسلم» (رقم ٣٠١٧).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم ١٣٤٨).

(٣) «التمهيد» (١/ ١٢٠).

(٤) «المسند» (٢/ ٢٢٤).

فُبشراكم يا أهل ذا الموقف الذي به يغفر الله الذنوب ويرحم

وَقَفَ الفضيل بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعرفة فنظر إلى نسيج الناس وبكائهم عشيّة عرفة فقال: «أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسأله دَانَقًا، أكان يرُدُّهم؟ قالوا: لا، قال: والله، للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدائق»^(١).

وعن عبد الله بن المبارك قال: «جئت إلى سفيان الثوري عشيّة عرفة وهو جاثٍ على ركبتيه، وعيناه تهملان، فبكيت، فالتفت إليّ فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم»^(٢).

ولهذا؛ فإنه ينبغي للمسلم الراغب في الربح والمغنم في هذا اليوم المبارك أن يكون مخبّتاً لربه سبحانه، متواضعاً له، خاضعاً لجناحه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمته ومغفرته، ويخاف عذابه ومقته.

تائباً إليه من كلّ ذنب اكتسبته يداه، وكل خطيئة مشت إليها قدماه، غير مضيع لوقته في هذا الموقف العظيم بالذهاب هنا وهناك، أو بالحديث مع هذا وذاك، بل يكون مقبلاً على ربه ومولاه، مكثراً من الذكر والدعاء والاستغفار والتضرع. وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٣).

(١) «مجلس في فضل يوم عرفة» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص ٦٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «حسن الظن بالله» (ص ٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» (رقم ٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

وحسنه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/٧، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

فيوم عرفة يوم الدعاء، وأفضل الذكر لا إله إلا الله، فكان ﷺ يُكثر من أفضل الذكر في أفضل الأيام؛ لأن سيد الأيام هو يوم عرفة، وسيد الأذكار هو لا إله إلا الله، فالإكثار من سيد الأذكار في سيد الأيام هو في غاية المناسبة والتوافق.

إن «لا إله إلا الله» هذه الكلمة العظيمة التي كان رسول الله ﷺ يُكثر من قولها في يوم عرفة هي أفضل الكلمات، وأجلُّها على الإطلاق، وهي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه، ورأس أمره؛ لأجلها قامت الأرض والسموات، وُخلقت الخليقة وأُرسلت الرسل، وأنزلت الكتب. وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، بل لها من الفضائل والمزايا ما لا يخطر ببال، ولا يدور في خيال.

لكن يجب على المسلم أن يعلم أن لا إله إلا الله لا تقبل من قائلها بمجرد نطقه لها بلسانه فقط دون قيام منه بحقها وفرضها، ودون استيفاء لأسسها وشروطها، فليست لا إله إلا الله اسمًا لا معنى له، أو قولًا لا حقيقة له، أو لفظًا لا مضمون له.

بل إن لهذه الكلمة العظيمة مدلولًا لا بد من فهمه، ومعنى لا بد من ضبطه، وغاية لا بد من تحقيقها، إذ غير نافع بإجماع أهل العلم النطق بهذه الكلمة من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أي: إلا من شهد بـ: لا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما شهدوا به بألسنتهم.

وهذا ولا شك أمرٌ في غاية الأهمية يجدر بكل مسلم أن يُعنى به غاية العناية، ويهتم به تمام الاهتمام؛ إذ إن لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها

نفياً وإثباتاً، واعتقد بذلك وعمل به.

أما من قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وأما من قالها وعمل بضدها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنها لا تنفعه، ولو قالها ألف مرة. وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كأن يدعو غير الله أو يستغيث بغيره، أو يطلب من غيره المدد والعون والنصر فيما لا يقدر عليه إلا الله، ونحو ذلك.

فمن صرف مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو المشرك بالله العظيم، ولو نطق ب: لا إله إلا الله؛ إذ إن هذه الكلمة العظيمة تعني إخلاص العبادة كلها لله وعدم الإشراك به، والإقبال على الله وحده لا شريك له خضوعاً وتذلاً، وطمعاً ورغباً، وإنابةً وتوكلاً، ودعاءً وطلباً.

فصاحب لا إله إلا الله لا يسأل إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يرجو غير الله، ولا يذبح إلا لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك^(١).



(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٧٨).

العاشر: وجوب الإخلاص لله في الذبح

إن من أيام الله العظيمة يوم النحر، اليوم العاشر من ذي الحجة يوم عيد الأضحى المبارك، وقد سمي هذا اليوم بيوم النحر لأن المسلمين يتقربون فيه إلى الله بنحر بهيمة الأنعام.

فالحجاج في هذا اليوم ينحرون هداياهم، والمسلمون في شتى بقاع الأرض ينحرون ضحاياهم، أولئك يتقربون إلى الله بنحر الهدايا وهؤلاء يتقربون إلى الله بنحر الضحايا.

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ٣٦﴾ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٧﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّقُوصُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٨﴾ [الحج: ٣٤-٣٧]؛ أي: ليس المقصود ذبحها فقط، بل إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها؛ فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دماؤها؛ فإنه تعالى هو الغني عما سواه ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّقُوصُ مِنْكُمْ﴾؛ أي: الإخلاص فيها والاحتساب

والنية الصالحة وابتغاء وجه الله بالعمل.

وفي هذا أعظم حثٍّ وترغيبٍ على الإخلاص في النحر وأن يكون القصد فيه وجه الله وحده؛ إذ إن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا الخالص الذي لا يُبتغى فيه إلا وجهه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: «يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونُسُكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]؛ أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، قال: النسك: الذبح في الحج والعمرة.

وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي. وكذا قال السدي والضحاك^(١). اهـ

والذبح عبادة عظيمة من أنواع العبادات التي يتقرب بها المسلمون إلى ربهم ﷻ نُسُكًا لله تعالى من هديٍّ أو أضحية أو عقيقة أو نذر أو غير ذلك، فلا يجوز صرف هذه العبادة لغير الله كما لا يجوز صرف أي عبادة لغيره سبحانه.

وقد ثبت في الصحيح من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٧).

آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ»^(١).

واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، وأخطر هذه الأمور الأربعة التي يستحق فاعلها هذه العقوبة هو الذبح لغير الله؛ ولهذا بدأ به رسول الله ﷺ، مما يدل على الخطورة البالغة لهذا الأمر؛ إذ إن الذبح لغير الله شرك، والأمور المذكورة معه في الحديث إنما هي من كبائر الإثم ولا تصل إلى رتبة الشرك. وكل ذبح لغير الله شرك ولو كان المذبوح المتقرب به تافهًا حقيرًا كالذباب ونحوه فكيف بمن يقرب نفائس الأنعام وأطاييها.

روى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفًا عليه بإسناد صحيح أنه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب ودخل آخر النار في ذباب، قالوا: وكيف ذاك؟!

قال: مرَّ رجلان مَمَّنَّ كان قبلكم على ناس معهم صنم لا يمرُّ بهم أحدٌ إلَّا قَرَّبَ لصنمهم، فقالوا لأحدهما: قَرَّبَ شيئًا، قال: ما معي شيء، قالوا: قَرَّبَ ولو ذبابًا فقَرَّبَ ذبابًا ومضى فدخل النار، وقالوا للآخر: قَرَّبَ شيئًا، قال: ما كنت لأقرب لأحد دون الله عَجَلًا فقتلوه فدخل الجنة»^(٢).

وهذا مما يبين عظم الشرك وشدة خطره ولو في الشيء القليل وأنه يوجب النار، فهذا الرجل الأول لما قرب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسه وهو الذباب كان جزاؤه النار؛ لإشراكه في عبادة الله، فإذا كان هذا فيمن قَرَّبَ ذبابًا، فكيف بمن يستسمن الإبل وغيرها ليتقرب بنحرها لمن كان يعبد من دون الله من قبرٍ أو مشهد أو حجر أو شجر أو غير ذلك.

(١) «صحيح مسلم» (رقم ١٩٧٨).

(٢) «الزهد» (ص ٣٢، ٣٣)، و«الحلية» (١/٢٠٣)، واللفظ له.

قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «شرح الصدور»: «ومن المفسد البالغة إلى حد يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أُمِّ رأسه من أعلى مكان الدين أن كثيرًا منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر متقربًا به إليه راجيًا ما يضمن حصوله منه، فيهل به لغير الله، ويتعبد به لوثن من الأوثان؛ إذ إنه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثنًا، وبين قبر لميت يسمونه قبرًا.

ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغني عن الحق شيئًا، ولا يؤثر تحليلًا ولا تحريمًا، فإن من أطلق على الخمر غير اسمها وشربها كان حكمه حكم من شربها وهو يسميها باسمها، بلا خلاف بين المسلمين أجمعين.

ولا شك أن النحر نوعٌ من أنواع العبادة التي تعبد الله العباد بها، كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشر به.

وهذه عبادة لا شك فيها، وكفاك من شر سماعه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والنبي ﷺ يقول: «لا عقر في الإسلام». قال عبد الرزاق [الصنعاني]: كانوا يعقرون عند القبر، يعني: بقراً وشياهًا. رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. اهـ كلام الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ^(١).

وقد أبلغ فيه رَحِمَهُ اللهُ بالنصيحة وأحسن في التحذير من هذا الأمر الخطير، فنسأل الله الكريم أن يقينا جميعًا من الوقوع في شيء من ذلك، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم، مطابقة لسنة نبيه محمد ﷺ إنه جواد كريم.

(١) «شرح الصدور» للشوكاني - ضمن «الجامع الفريد» (ص ٥٢٩-٥٣٠).

الحادي عشر: في حلق الرأس

إن أعمال يوم النحر اليوم العاشر من ذي الحجة أربعة أعمال معلومة مشهورة، وهي الرمي، ثم النحر، ثم الحلق، ثم الطواف. والحديث هنا سيكون عن حلق الرأس أو تقصيره تبعاً لله وطاعة له وتقرباً إليه في هذا اليوم العظيم، والحلق هو إزالة شعر الرأس كاملاً، والتقصير هو التخفيف من شعر الرأس كله، والحلق أو التقصير واجب من واجبات الحج والعمرة، لا يجوز تركه، والدليل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

قال ابن قدامة رحمه الله: «ولو لم يكن من المناسك لما وصفهم به»^(١).
روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم النبي ﷺ مكة أمر أصحابه أن يطوفوا بالبيت وبالصفاء والمروة، ثم يحلوا ويحلقوا أو يقصروا»^(٢).
فهو واجب من واجبات الحج والعمرة، فمن لم يحلق أو يقصر لزمه جبران هذا الواجب بدم، وهو إشعارٌ بانتهاء مدة الإحرام واقتداء بفعل الرسول -عليه الصلاة والسلام- حيث حلق رأسه وأمر أصحابه بالحلق إلقاءً للتفت وإزالة للشعث، وهو وضع للنواصي بين يدي ربها خضوعاً لعظمته وتذلاً لعزته، وهو

(١) «المغني» (٥ / ٣٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ١٧٣١).

من أبلغ أنواع العبودية لله ﷻ .

وعندما يقوم المسلم بهذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة امتثالاً لله واتباعاً لرسول الله ﷺ يجب عليه أن يعلم أن حلق الرأس أو تقصيره على وجه التعبد والتقرب لا يجوز القيام به لغير الله ﷻ .

وقد سئل الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عَنْ أَقْوَامٍ يَحْلِقُونَ رءُوسَهُمْ عَلَى أَيْدِي الْأَشْيَاحِ، وَعِنْدَ الْقُبُورِ الَّتِي يَعْظُمُونَهَا وَيَعْدُّونَ ذَلِكَ قُرْبَةً وَعِبَادَةً: هَلْ هَذَا سُنَّةٌ أَوْ بَدْعَةٌ؟
وَهَلْ حَلَقُ الرَّأْسِ مُطْلَقًا سُنَّةٌ أَوْ بَدْعَةٌ؟

فقال رَحِمَهُ اللهُ: «حلق الرأس على أربعة أنواع:

أحدها: حلقه في الحج والعمرة فهذا مما أمر الله به ورسوله ﷺ، وهو مشروع ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ سَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحْلِقِينَ رءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].
وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه حلق رأسه في حجه وفي عمره، وكذلك أصحابه، منهم مَنْ حلق ومنهم من قصر، والحلق أفضل من التقصير؛ ولهذا قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحْلِقِينَ».

قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحْلِقِينَ.

قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحْلِقِينَ.

قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين»^(١).

وقد أمر الصحابة الذي ساقوا الهدى في حجة الوداع أن يقصروا رءُوسهم للعمرة إذا طافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم يحلقوا إذا قضوا الحج، فجمع

(١) «صحيح البخاري» (رقم ١٧٢٧)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٣٠١).

لهم بين التقصير أولاً وبين الحلق ثانياً.

والنوع الثاني: حلق الرأس للحاجة، مثل أن يحلقه للتداوي، فهذا أيضاً جائز بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن الله رخص للمحرم الذي لا يجوز له حلق رأسه أن يحلقه إذا كان به أذى كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ، فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقد ثبت باتفاق المسلمين حديث كعب بن عجرة لما مرَّ به النبي ﷺ في عمرة الحديبية - والقمل ينهال من رأسه - فقال: «أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟» قال: نعم، فقال: احلق رأسك وانسك شاة؛ أو صُمْ ثلاثة أيام؛ أو أطعم فَرَقًا بين ستة مساكين^(١). وهذا الحديث متفق على صحته؛ متلقى بالقبول من جميع المسلمين.

والنوع الثالث: حلقه على وجه التعبد والتدين والزهد؛ من غير حج ولا عمرة، مثلما يأمر بعض الناس التائب إذا تاب أن يحلق رأسه، ومثل أن يُجعل حلق الرأس شعار أهل النسك والدين؛ أو من تمام الزهد والعبادة، أو يجعل من يحلق رأسه أفضل ممن لم يحلقه، أو أدين، أو أزهد، أو أن يقصر من شعر التائب كما يفعل بعض المنتسبين إلى المشيخة إذا تَوَّب أحداً أن يقص بعض شعره، ويعين الشيخ صاحب مقص وسجادة؛ فيجعل صلاته على السجادة، وقصه رءوس الناس من تمام المشيخة التي يصلح بها أن يكون قدوة يتوَّب التائبين؛ فهذا بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله ﷺ؛ وليست واجبة ولا مستحبة عند أحد من أئمة الدين؛ ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة لا من الصحابة ولا من التابعين ولا تابعيهم ومن بعدهم.

(١) «صحيح البخاري» (رقم ١٨١٤)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٢٠١).

وقد أسلم على عهد النبي ﷺ من أسلم^(١) ولم يكن يأمرهم بحلق رؤوسهم إذا أسلموا ولا قصَّ النبي ﷺ رأس أحد.

ولا كان يصلي على سجادة، بل كان يصلي إمامًا بجميع المسلمين يصلي على ما يصلون عليه، ويقعد على ما يقعدون عليه، لم يكن متميزًا عنهم بشيء يقعد عليه لا سجادة ولا غيره.

ومن اعتقد البدع التي ليست واجبة ولا مستحبة قربة وطاعة وطريقًا إلى الله، وجعلها من تمام الدين ومما يؤمر به التائب والزاهد والعابد فهو ضال خارج عن سبيل الرحمن، متبع لخطوات الشيطان».

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ النوع الرابع من الحلق، وهو أن يحلق رأسه في غير النسك لغير حاجة ولا على وجه التقرب والتدين، وذكر أن لأهل العلم فيه قولين، هما روايتان عن الإمام أحمد:

أحدهما: أنه مكروه، وهو مذهب مالك وغيره.

والثاني: أنه مباح، وهو المعروف عند أصحاب أبي حنيفة والشافعي.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ ما احتج به أهل كل قول^(٢).

وذكر الإمام ابن القيم نحو هذا التقسيم المتقدم في كتابه «زاد المعاد»، وذكر أن من أنواع حلق الرأس ما هو بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله سبحانه كما يحلقها المريدون لشييوخهم.

فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقت لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان، فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل؛ ولهذا كان من تمام الحج.

(١) في الأصل: «جميع من في الأرض».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢١/١١٦-١١٩).

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ أَنْ شيوخ الضلال زينوا لمريديهم حلق رءوسهم لهم كما
زينوا لهم السجود لهم^(١)، وكلُّ ذلك من الشرك المبين، ومن البهتان العظيم،
نسأل الله السلامة.



(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٥٩-١٦٠).

الثاني عشر: الإخلاص لله في الدعاء

إن من العبادات العظيمة التي يكثر إقبال المسلمين عليها في الحج وتعظم عنايتهم بها فيه، الدعاء الذي هو أجل أنواع العبادة وأفضلها، وقد وصفه ﷺ في الحديث الصحيح بأنه هو العبادة؛ لعظم مكانه منها ولرفعة شأنه فيها.

ولذا وردت النصوص الكثيرة في القرآن والسنة الدالة على عظيم شأنه ورفيع مكانته، والمشتملة على التنويه به والحث عليه والترغيب فيه بوجوه مختلفة من الدلالة بالأمر به تارة، وبيان مكانته ومنزلته تارة، وبالثناء على أهله والقائمين به أخرى، وبذكر عظم ثوابهم وتنوع أجورهم تارة، وبالتحذير في بعض المواطن من التهاون به أو الاستكبار عنه.

يقول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عَنِّي

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ. ومما يزيد في اهتمام الحجاج بالدعاء ويُقَوِّي إقبالهم عليه في الحج أنه قد اجتمع لهم فيه فضلُ المكان وشرفُهُ مع فضل الزمان وشرفِهِ مع ما يعتري أيضًا قلوبهم إذ ذاك من الرِّقَّة والخشوع والإقبال على الله عَزَّ وَجَلَّ ولا سيما في يوم عرفة الذي هو أعظمُ الأيام وأشرفُها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإنه من المعلوم أن الحجيج عشيَّة عرفة ينزلُ على قلوبهم من الإيمان والرحمة والنور والبركة ما لا يمكن التعبير به»^(١). اهـ

ولذا ثبت عن النبي ﷺ في تعظيم شأن الدعاء يوم عرفة وبيان فضله أنه قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة»^(٢).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه -أي: هذا الحديث- من الفقه أن دعاء يوم عرفة أفضل من غيره... وفي الحديث دليل على أن دعاء يوم عرفة مجابٌ كله في الأغلب». اهـ^(٣).

وفي الحج أمكنةٌ خاصةٌ ينبغي للمسلم أن يقف بها ويتحرى الدعاء فيها، اقتداءً بالنبي ﷺ حيث ثبت عنه أنه كان يقف فيها ويستقبل القبلة ويدعو الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي بالأخص ستة أماكن:

(١) «مجموع الفتاوى» (٥ / ٣٧٤).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (رقم ٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤ / ٧، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

(٣) «التمهيد» (٦ / ٤١).

في عرفة كما تقدم، وفي المشعر الحرام كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وعلى الصفا والمروة لما ثبت في «المسند» و«صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثاً ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، يصنع ذلك ثلاث مرات ويدعو، ويصنع على المروة مثل ذلك»^(١).

ويقف بعد رمي الجمرتين الصغرى والوسطى لما ثبت في صحيح البخاري: «أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم حتى يسهل فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه.

ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل ويقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه ويقوم طويلاً، ثم يرمي جمرة العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف فيقول: هكذا رأيت النبي ﷺ يفعل»^(٢).

فهذه ستة مواضع ثبت أن النبي ﷺ يقف فيها ويتحرى الدعاء، ويرفع يديه، وعموماً فالدعاء له شأن عظيم ومنزلة عالية في الحج، بل إن له شأنًا بالغاً في العبادات كلها، بل هو روح العبادة ولُبُّها، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة»^(٣).

وإذا كان الدعاء بهذه المنزلة الرفيعة من الدين، وبهذه الرتبة العالية منه، فإن

(١) انظر: «صحيح مسلم» (رقم ١٢١٨)، و«المسند» (٣/ ٣٨٨) واللفظ له.

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ١٧٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١)، والترمذي (رقم ٢٩٦٩) وغيرهما.

الواجب على المسلم أن تكون عنايته بالدعاء عظيمة، واهتمامه به بالغاً، وأنه يكون متقيداً بشروطه، متأدياً بآدابه، حذراً من الوقوع في شيء من موانع إجابته، متحريراً الأوقات الفاضلة لقبوله، وأهم ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب العظيم أن يكون دعاء المسلم خالصاً لله وَجَلَّ فلا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله ولا يطلب المدد والعون والنصر والشفاء إلا من الله ولا يستعين إلا بالله لأن الدعاء كما تقدم هو العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر، ناقلاً من الملة -والعياذ بالله-.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذَا يُرِيدُ بِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[يونس: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْجُدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن آداب الدعاء ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿[الأعراف: ٥٥-٦٥].

وإذا جمع المسلم مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته مع المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له، وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع

يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه.

ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبةً، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة.

فإنّ هذا الدعاء لا يكاد يُردُّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنّها متضمنة للاسم الأعظم الذي إذا سئل الله به أعطى، وإذا دُعي به أجاب^(١).

ومن ذلك ما ثبت في السنن أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال ﷺ: لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»^(٢).



(١) انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ٩).

(٢) رواه أبو داود (رقم ١٤٩٣)، والترمذي (رقم ٣٤٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم ٧٦٦٦)، وابن ماجه (رقم ٣٨٥٧)، وابن حبان (رقم ٨٩١، ٨٩٢).

الثالث عشر: في التحذير من الغلو في الدين

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج من حجِّه لبيت الله الحرام أهمية التوسُّط والاعتدال في الأمور كُلِّها، ومجانبة الغلو والجفاء أو الإفراط والتفريط، كما قال الله تعالى في شأن هذه الأمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والمراد بقوله سبحانه: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: شهودًا عدولًا، لا يميلون عن الحق، لا إلى غلو، ولا إلى جفاء، بل يتوسَّطون ويعتدلون، والحج مليء بالمواقف العظيمة والعبر الجليلة التي ترشد إلى أهمية التوسُّط، وتدُلُّ على أهمية الاعتدال.

ومن أهمِّ هذه المواقف في هذا الباب العظيم النظر في هدي النبي ﷺ وسنَّته في رمي الجمار على ضوء ما ثبت عنه ﷺ، ثمَّ النظر بعد ذلك إلى أحوال الناس مع سنَّته، فإنَّ حالهم في ذلك بين غلوٍّ وجفاء، وإفراط وتفريط، إلَّا من وفقهم الله وأكرمهم بلزوم سنَّته ومتابعة هديه واقتفاء أثره ﷺ.

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «الْقُطُّ لِي حَصَى، فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصِيَّاتٍ، لَهُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلْتُ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ فَارَمُوا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ

الغلو في الدين^(١).

وإسناده صحيح على شرط مسلم كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ^(٢)، وغيره من أهل العلم.

فقوله رَحِمَهُ اللهُ في الحديث: «أمثال هؤلاء فارموا»؛ أي: الحصيات التي التقت له بحجمها المحدد في الحديث وهو حجم حصي الخذف، فاللفظ لا يتناول الحجم الصغير الذي لا يُسمى حصاة، كما لا يتناول الحجم الكبير الذي يُسمى حجراً، فالمشروع هو التوسط، ومع وضوح هذا الأمر وشدة بيانه فإنك إذا قارنت ذلك بحال بعض المسلمين ممن جهلوا سنة النبي ﷺ تجد منهم أمراً عجباً في هذا الباب بين غلو وجفاء وإفراط وتفريط، وزيادة وتقصير.

والحق قوام بين ذلك، فلا يقصر المسلم عن سنته ﷺ شأن أهل التفريط والجفاء، ولا يزيد عليها شأن أهل الإفراط والغلو، وإنما يكون عدلاً وسطاً.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «إياكم والغلو» عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمسلم منهي عن الغلو في كل أحواله ممنوع منه في كل شئونه، مأمور باقتفاء آثار الرسول الكريم ﷺ واتباع سنته في الأحوال كلها.

إن الشيطان حريص تمام الحرص على عبد الله المؤمن ليصرفه عن الجادة وليبعده عن صراط الله المستقيم إما إلى غلو أو إلى جفاء ولا يبالي بأي الأمرين ظفر.

(١) «المسند» (١/ ٢١٥)، و«سنن النسائي» (٥/ ٢٦٨)، و«سنن ابن ماجه» (رقم ٣٠٦٩).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٩٣).

كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيهما ظفر». وهو قاعدٌ للمسلم بأطرقه لا يفتُر ولا يملُّ من الكيد له والتربص به واستفراغ كامل الوُسْع لإضلاله وصرفه عن الصراط المستقيم والهدي المستبين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ مِنْ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ»: «ومن كيده -أي: الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه- أنه يشأَمُ النفس حتى يعلم أيُّ القوتين تغلب عليها قوة الإقدام والشجاعة، أم الانكفاف والإحجام والمهانة، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تشييطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه فهوَّ عليه تركه حتى يتركه جملةً أو يقصر فيه ويتهاون. وإن رأى الغالب عليه قوَّة الإقدام وعلوَّ الهمة أخذ يقلل عنده المأمور ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني...»

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الوادين وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه...»^(١).

ثم أطال رَحِمَهُ اللهُ بَضْرَبِ أَمْثَلَةٍ كَثِيرَةٍ عَلَى ذَلِكَ فِي جَوَانِبِ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الدِّينِ، يَنْقَسِمُ فِيهَا النَّاسُ إِلَى أَقْسَامٍ: أَهْلُ غُلُوٍّ، وَأَهْلُ جَفَاءٍ، وَأَهْلُ تَوْسُطٍ وَاعْتِدَالٍ. إن الاعتدال في الأمور كُلِّهَا، والتوسط فيها، والبعد عن الغلو والجفاء هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي ينبغي أن يسلكه جميع المؤمنين كما أمرهم الله بذلك في كتابه، وكما أمرهم بذلك رسوله ﷺ.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٣٦).

فالتوسط حقاً والاعتدال هو الأخذ بالحد الذي حدّه الله لعباده بحيث لا يدخل فيه ما ليس منه، ولا يخرج منه ما هو داخل فيه.

فبهذا امتدح الله المؤمنين، وبهذا أمرهم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

وقد صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا»^(١)؛ أي: عليكم بالقصد من الأمور في الأقوال والأفعال، والقصد هو الوسط بين الطرفين.
وصح عن النبي ﷺ أنه قال كما في المسند وغيره: «عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشاء الدين يغلبه»^(٢).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة»^(٣).

فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيار الناس هم الوسط الذين

(١) «صحيح البخاري» (رقم ٦٤٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٥٠/٥، ٣٦١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٤٠٨٦).

(٣) رواه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١/٨٨).

ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، بل لزموا هدي سيد المرسلين وخيرة رب العالمين وقدوة الناس أجمعين محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين-.

وفي الختام: فهذه جملة من الدروس المنتقاة والفوائد المختارة، والتي يفيدها المسلمون من حجهم لبيت الله الحرام، والحج كما تقدم مليء بالدروس العظيمة والعبر الرائعة والفوائد المؤثرة، إلا أن الناس في تحصيلها واكتسابها متفاوتون بحسب ما تعي قلوبهم من ذلك.

فهناك قلبٌ كبيرٌ يسع علماً عظيماً، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيراً، وقلب صغير، كوادٍ صغيرٍ يسع علماً قليلاً، وقلبٌ لاهٍ غافل غمرته الغفلة، فلم يجد العلم مكاناً فيه، والتوفيق بيد الله وحده.

فنسأله أن يمنَّ علينا جميعاً بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعمر قلوبنا بطاعته، إنه سبحانه سميع الدعاء وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



الحج
وتهذيب النفوس

بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام
المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فما أعظم منافع الحج وفوائده، وما أغزر خيراته وبركاته، وما أطيب عبره
وعظاته، أمور لا تُحصى، وفوائد جليّة لا تُعدّ ولا تُستقصى.
وقد لا يتيسّر لكثير من الحُجّاج الوقوف على منافع الحج وفوائده ودروسه
وعظاته، وحسن الاستفادة منها رغم أهميّتها الجليّة وآثارها النبيلة عليهم في
حياتهم كلّها.

ولذا رأيتُ من المفيد إخراج هذه الرسالة رغبةً في تحقيق هذا المقصد
الجليل والهدف النبيل وجعلتها بعنوان: «الحجُّ وتهذيبُ النفوس»، راجياً من الله
وحده أن يتقبلها بقبول حسن، وأن يجعلها نافعةً لعباده، إنه ولي التوفيق والقبول،
وهو حسبي ونعم الوكيل.



١- الحجُّ والإصلاح

إِنَّ الْحَجَّ مدرسةٌ مباركةٌ لتَهذيب النفوس وتزكية القلوب وتقوية الإيمان، فمن خلال هذا المنسك العظيم والشعيرة المباركة يتلقَّى المسلمون الدروسَ العظيمة والعِبَر المؤثِّرة والفوائد الجليلة في العقيدة والعبادة والأخلاق.

فهو بحق مدرسة تربوية إيمانية يتخرج فيها المؤمنون المتّقون، وينهل من معينها المبارك عبادُ الله الموفّقون، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿[الحج: ٢٧].

ومنافع الحج وفوائده لا يمكن حصرها، وعبره ودروسه لا يمكن عدّها واستقصاؤها، فإن قوله تعالى في الآية: ﴿مَنَافِعَ﴾؛ هو جمع منفعة، ونكّر المنافع إشارةً إلى تعدُّدها وتنوعها وكثرتها.

وشهودُ هذه المنافع أمرٌ مقصودٌ في الحجِّ، إذ اللام في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾؛ لام التعليل، وهي متعلّقةٌ بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي: إن تؤذن فيهم بالحج يأتوك مشاةً وركبانا لأجل أن يشهدوا منافع الحج، أي: يحضروها، والمراد بحضورهم المنافع: حصولها لهم وانتفاعهم بها.

ولهذا فإن من الحريّ بكلّ من وفّقهُ الله لهذه الطاعة ويَسّر له أداء هذه العبادة أن يكون حريصاً غاية الحرص على تحصيل منافع الحجّ والإفادة من عبّره

وعظاته، إضافة إلى ما يحصله في حجه من أجور عظيمة وثواب جزيل ومغفرة للذنوب وتكفير للسيئات.

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». رواه البخاري ومسلم^(١).

وثبت عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد». رواه النسائي^(٢).
وجدير بمن نال هذا الرّبح وفاز بهذا المغنم أن يعود إلى بلده بحال زاكية ونفس طيبة وحياة جديدة مليئة بالإيمان والتقوى، عامرة بالخير والصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله ﷻ.

وقد ذكر العلماء أن هذا الصّلاح والزكاء إن وُجدَا في العبد فهو من أمارات الرّضا وعلامات القبول، فإنّ مَنْ حُسنت حاله بعد الحجّ بالتحوّل من السيئ إلى الحسن أو من الحسن إلى الأحسن فإن ذلك دليل على حسن انتفاعه بحجه؛ إذ إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال الله ﷻ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فمَنْ أحسن في حجه واجتهد في تكميمه وتكميله، وابتعد عن نواقصه ومفسداته؛ خرج منه بأحسن حال، وانقلب إلى أطيب مأل.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٣).
وما من ريب أن كلّ حاجّ يطمع ويؤمل أن يكون حجه مبروراً وسعيه

(١) «صحيح البخاري» (رقم ١٨٢٠)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٣٥٠).

(٢) «سنن النسائي» (١١٥/٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٩٠١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٤٩).

مشكوراً وعمله صالحاً مقبولاً.

والعلامة الواضحة لبرّ الحج وقبوله أن يكون المرء قد أداه خالصاً لوجه الله، موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، فإن هذين شرطان لا قبول لأي عمل من الأعمال إلا بهما، وأن تكون حاله بعد الحج خيراً منها قبله.

فهاتان علامتان على القبول: علامة تكون في أثناء الحج وهي أن يأتي به صاحبه خالصاً لوجه الله موافقاً لسنة رسوله ﷺ، وعلامة تكون بعد الحج وهي صلاح حال الإنسان بعد الحج بأن يزيد إقباله على الطاعات واجتنابه للمعاصي والذنوب، وأن يبدأ حياة طيبة معمورة بالخير والصلاح والاستقامة.

وينبغي التنبيه هنا إلى أن المسلم لا سبيل له إلى أن يجزم بقبول عمله مهما أجاد فيه وأحسن، قال الله تعالى في بيان حال المؤمنين الكُمل وشأنهم فيما يتقربون به إلى الله من طاعات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: يعطون من أنفسهم ما أمروا به من عبادات من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك، وهم خائفون عند عرض أعمالهم على الله وعند وقوفهم بين يدي الله من أن تكون أعمالهم غير منجية وطاعاتهم غير مقبولة.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «قلت: يا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أهو الرجل يزني ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر -أو: لا يا بنت الصديق- ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو يخاف ألا يُقبل منه»^(١).

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق

(١) «المسند» (٢٥٧٠٥).

جمع إساءة وأمناً»^(١).

وقد مضت السنة بين المؤمنين في قديم الزمان وحديثه أن يقول بعضهم لبعض عقب هذه الطاعة: تقبل الله منا ومنكم، فالكل يرجو القبول^(٢).

وقد ذكر الله في القرآن الكريم أن نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- كانا يدعوان بهذا الدعاء عند بنائهما للكعبة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فهما في عمل صالح جليل وهما يسألان الله أن يتقبل منهما. روى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد: «أنه قرأ هذه الآية ثم بكى، وقال: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يقبل منك»^(٣). فإذا كان هذا شأن إمام الحنفاء وقدوة الموحدين فكيف الشأن بمن دونه. نسأل الله للجميع القبول والتوفيق والسداد، وأن يكتب لحجاج بيت الله الحرام السلامة والعافية، وأن يتقبل منا ومنهم صالح الأعمال، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، إنه جواد كريم.

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).

(٢) قال ابن بطّة في كتاب «الإبانة» (٨٧٣/٢): «... وكذلك يقول من قدم من حجه بعد فراغه من حجه وعمرته وقضاء جميع مناسكه إذا سئل عن حجه إنما يقول: قد حججنا ما بقي غير القبول، وكذلك دعاء الناس لأنفسهم ودعاء بعضهم لبعض: اللهم تقبل صومنا وزكاتنا، وبذلك يلقي الحاج فيقال له: قبل الله حجك وزكى عملك، وكذا يتلقى الناس عند انقضاء شهر رمضان، فيقول بعضهم لبعض: قبل الله منا ومنكم، بهذا مضت سنة المسلمين، وعليه جرت عادتهم، وأخذ خلفهم عن سلفهم».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، كما في «تفسير ابن كثير» (٢٥٤/١) طبعة الشعب.

٢- الحج والاستجابة لله

إن الحج طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، فيها تحقيقٌ للعبودية وكمالٌ في الذلِّ والخضوع والانكسار بين يدي الربِّ عَزَّ وَجَلَّ، فالحاج يخرج من ملاذ الدنيا ومحابها مهاجرًا إلى ربه سبحانه، تاركًا ماله وأهله وعشيرته، متغربًا عن بيته ووطنه.

متجرّدًا من ثيابه المعتادة لابسًا إزارًا ورداءً، حاسرًا عن رأسه، متواضعًا لربه، تاركًا الطيب والنساء، متنقلًا بين المشاعر بقلب خاشع وعين دامعة ولسان ذاكِر، راجيًا رحمة ربه، خائفًا من عذابه.

وشعاره في ذلك كله «لبيك اللهم لبيك»؛ أي: إنني خاضعٌ لك يا ربَّ مستجيبٌ لندائك منقادٌ لحكمك، ممثّل لأمرك.

والتلبية شعارُ الحج، فالمسلم يبدأ أعمال الحج بالتلبية ويمضي إلى مكة ملبيًا إلى أن يصل إلى البيت ويشرع في الطواف، ثم هو يُلبي كلّما انتقل من ركن إلى ركن، ومن منسك إلى آخر، فإذا سار إلى عرفة لبّي، وإذا سار إلى المزدلفة لبّي، وإذا سار إلى منى لبّي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطع التلبية، فالتلبية شعارُ الحج والتنقل في أعمال المناسك.

وكم لهذا من أثر مبارك على المسلم في تركية نفسه وإصلاحها ومعالجة تقصيرها في أوامر الله والقيام بحقوقه سبحانه.

أليس الواجب على المسلم أن يكون دائمًا ملبيًا نداء الله، مستجيبًا لأمره،

منقاداً لحكمه، أليس الواجب على المسلم أن يكون شأنه في كل طاعة أن يُلبّي نداء الله وأن يستجيب لأمره.

فقد أمر الله عباده بالصلاة والزكاة والصيام والصدق والوفاء والأمانة والبر والإحسان، ونهاهم عن الرّنا والقتل وشرب الخمر والكذب والغش والخيانة، فما شأن المسلم مع هذه الأوامر والنواهي، هل هو مُلبّ أمر الله قائم بطاعته سبحانه، أو أنه متلقّ ذلك بالفسق والعصيان.

إن حقيقة الإسلام الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقوله: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾؛ أي: الإسلام بامتثال شرع الله وطاعة أمره، وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعاً.

قال مجاهد: «أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر»^(١). فهو سبحانه أمرهم بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة ما استطاعوا منها، كما قال تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وفي الحديث: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم» متفق عليه^(٢). والآيات في الأمر بالاستسلام لله وتلبية نداءه وامتثال أوامره والتزام طاعته كثيرةٌ جداً.

فيا مَنْ أمرَك الله بالحجّ فلبّيت النداءَ وجئتَ ميمماً بيته العتيق ترجو رحمته وتخاف عقابه، كيف حظك مع بقية الأوامر، كيف شأنك مع الصلاة التي هي

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٢٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٧).

عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين، كيف شأنك مع الصيام، كيف شأنك مع الزكاة، كيف شأنك في البعد عن النواهي وترك المحرمات، إن كنت ممثلاً فاحمد الله واسأله المزيد، وإن كنت مفترطاً مضيئاً فحاسب نفسك قبل أن تحاسب في يوم الوعيد، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، حيث يقول تعالى: في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه»^(١).

إن الناس مع الأوامر والنواهي ينقسمون إلى أحوال: منهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويكفّ عن ارتكاب المعاصي، وهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتّقين.

ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات ويُقدّم على ارتكاب المعاصي؛ وهذا أخبث أحوال المكلفين وهو يستحقّ عذاب اللاّهي عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه.

ومنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويُقدّم على ارتكاب المعاصي؛ فهذا يستحقّ عذاب المجترئ؛ لأنه تورّط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية.

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكفّ عن ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقّ عذاب اللاّهي عن دينه.

والواجب على المسلم أن يكون ناصحاً لنفسه محافظاً على طاعة ربّه ممثلاً أمره مبتعداً عن نهيه صابراً محتسباً.

قال أحد السّلف: «إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من

الصبر على عذابه».

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

وقال آخر: «اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه».

وكم يحتمي الإنسان في هذه الحياة الدنيا من أمور يخشى أن تضرَّ بدنه أو تؤثر على صحته، ومع ذلك لا يحتمي من أمور تفضي به إلى عقاب الله وتؤول به إلى عذابه.

قال ابن شبرمة: «عجبتُ لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار».

وقال حماد بن زيد: «عجبتُ عمَّن يحتمي من الأطعمة لمضرَّاتها كيف لا يحتمي من الذنوب لمعرَّتها»^(١).

وتأمل أخي الملبِّي الموفق جميع ما سبق، وتأمل معه وصية النبي ﷺ لمعاشر الملبِّين، ففي الترمذي وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع، فقال: «اتقوا الله ربَّكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم».

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه الحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي^(٢).

وإنا لنسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا وإياكم من الملبِّين نداءه سبحانه حقاً وصدقاً، وأن يُلهمنا رشد أنفسنا، وأن يوفِّقنا لطاعته إنَّه سميع مجيب.



(١) انظر فيما سبق «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص ١٠٣-١٠٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٦١٦)، و«المستدرک» (٩/١).

٣- الحج والذكر

لقد شرع الله لعباده الحج لإقامة ذكره سبحانه، فالذكر هو مقصود الحج بل هو المقصود في جميع الطاعات، فما شرعت العبادات إلا لأجله وما تقرب المتقربون إلى الله بمثله، والحج كله ذكر لله.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

أَنْتُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿البقرة: ١٩٨-٢٠٣﴾.

فتأمل هذه الوصية العظيمة والأمر الكريم بملازمة ذكر الله وَعَلَّاهُ في جميع مقامات الحج: في الوقوف بعرفة أمر بالذكر، وعند المشعر الحرام أمر بالذكر، وعند نحر الهدي أمر بالذكر، وفي أيام التشريق أمر بالذكر، فالذكر هو مقصود هذه الأعمال، بل إنها لم تشرع إلا لإقامة ذكره سبحانه.

وقد روى أبو داود وغيره عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَلَّاهُ» ^(١).

وفي هذا دلالة على علو شأن الذكر ورفعة منزلته وجلالة قدره، وأنه مقصود العبادات ولبها، وقد قال الله وَعَلَّاهُ في شأن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكر الله - جل وعلا -.

وسمى سبحانه الصلاة ذكراً وذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. لأن ذكر الله روحها ولبها وحقيقتها، وهكذا شأن الذكر في جميع العبادات، وأعظم الناس أجراً في كل عبادة أعظمهم فيها ذكراً لله وَعَلَّاهُ.

روى الإمام أحمد والطبراني من طريق عبد الله بن لهيعة قال: حدثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «أَنْ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَعْظَمُ أَجْرًا، قَالَ: أَكْثَرُهُمْ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - ذِكْرًا. قَالَ: أَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟

قال: أَكْثَرُهُمْ اللَّهُ ذِكْرًا. ثم ذكر لنا الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك

(١) «سنن أبي داود» (١٨٨٨)، و«جامع الترمذي» (٩٠٢)، وقال: حسن صحيح.

رسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله -تبارك وتعالى- ذكراً. فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: أجل»^(١).

قال الهيثمي: «وفيه زبّان بن فائد وهو ضعيف، وقد وثق وكذلك ابن لهيعة»^(٢).

لكن للحديث شاهد مرسل بإسناد صحيح رواه ابن المبارك في الزهد قال: أخبرني حيوة قال: حدثني زهرة بن معبد أنه سمع أبا سعيد المقبري يقول: «قيل: يا رسول الله، أيُّ الحاجّ أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً.

قال: فأَيُّ المصلّين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً.

قال: فأَيُّ الصائمين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً؟

قال: فأَيُّ المجاهدين أعظم أجراً؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً».

قال زهرة فأخبرني أبو سعيد المقبري أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: ذهب الذاكرون بكل خير»^(٣).

وله شاهد آخر أورده ابن القيم في كتابه الوابل الصيب قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلًا: «أن النبي ﷺ سُئل: أيُّ أهل المسجد خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله ﷻ».

قيل: أيُّ أهل الجنّاة خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله ﷻ.

قيل: فأَيُّ المجاهدين خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله ﷻ.

قيل: فأَيُّ الحُجّاج خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله ﷻ.

قيل: فأَيُّ العوّاد خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله ﷻ.

(١) «المسند» (١٥٦١٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٠/ رقم ٤٠٧).

(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤).

(٣) «الزهد» (١٤٢٩).

قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كله»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله وَجَلَّ، فأفضل الصَّوَام أكثرهم ذكرًا لله وَجَلَّ في صومهم، وأفضل المتصدِّقين أكثرهم ذكرًا لله وَجَلَّ، وأفضل الحُجَّاج أكثرهم ذكرًا لله وَجَلَّ، وهكذا سائر الأعمال»^(٢).

فإذا علمت ذلك فلتحرص على ملازمة ذكر الله في جميع الطاعات؛ في صلاتك وصيامك وحجك وجميع عباداتك، فإن أجرك في كل عبادة بحسب ذكرك لله فيها.

فالذكر أجل الطاعات وأعظم العبادات، وثماره على أهله كثيرة لا تُحصى، ومن أجل ثماره أنه وسيلة مباركة لحياة القلب وتهذيب النفس وتركية الفؤاد، وهو يجلب لقلب الذاكر الفرح والسرور والراحة، ويورث القلب السكون والطمأنينة، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهو شفاء للقلب ودواء لمرضه ومذهب لقسوته، وفي القلوب قسوة لا يُذيبها إلا ذكر الله تعالى.

جاء رجل إلى الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ وقال: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بالذكر»^(٣).

وبذكر الله تتيسر الأمور وتتسهل الصَّعَابُ، فما ذكر الله على صعب إلا هان

(١) «الوابل الصيب» (ص ١٥٢).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ١٥٢).

(٣) ذكره ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص ١٤٢).

ولا على عسير إلا تيسر ولا مشقة إلا خفت ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا
انفرجت.

جعلنا الله وإياكم من الذاكرين، وجنبنا سبيل الغافلين، إنه سبحانه سميع
الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



٤- الحجُّ والتوكُّل

إن الحج رحلةٌ مباركةٌ وسفرٌ عظيمٌ إلى خير الأراضى وأشرف البقاع استجابةً لله ورغبةً في ثوابه وأملًا في نيل عظيم موعوده وجزيل نواله ووافر أجره، وهو باب رَحْبٍ لحطِّ الأوزار، وتكفير السيِّئات وزيادة الحسنات، وإقالة العثرات، والعنت من النار.

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْحَجِّ يَخْرُجْ مُعْتَمِدًا عَلَى رَبِّهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مَفْوضًا أَمْرُهُ إِلَيْهِ، طَالِبًا مِنْهُ وَحْدَهُ الْعَوْنَ وَالتَّوْفِيقَ وَالْهُدَايَةَ، لَعَلَّهُ بِأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَحْمِلُ زَادَهُ مَعَهُ، وَيُبْذِلُ السَّبَبَ فِي نَيْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ. وَتَأْمَلْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الْحَجِّ: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن ناسًا كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد، ويظنون أن هذا حقيقة التوكُّل، ثم يضطرون إلى الناس ويحتاجون إلى سؤالهم. روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: «كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى﴾»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (١٥٢٣).

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «التوكل» عن معاوية بن قرة قال: «لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال: مَنْ أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتكّلون، إنّ المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

إن حقيقة التوكل هو عمل القلب وعبوديته لله اعتماداً عليه وثقة به والتجاء إليه وتقويضاً ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوّض أموره إليه، مع القيام بالأسباب المأمور بها والاجتهاد في نيلها وتحصيلها، هذه حقيقة التوكل: اعتماد على الله وحده لا شريك له مع فعل الأسباب المأمور بها.

والناس في هذا المقام الجليل منقسمون إلى ثلاثة أقسام، طرفين ووسط، فأحد الطرفين: عطّل السبب محافظة على التوكل، والطرف الثاني: عطّل التوكل محافظة على السبب، والوسط: علم أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وهما أصلاً لا بدّ منهما لتحقيق التوكل.

وقد جُمع بين هذين الأصلين العظيمين في نصوص كثيرة كقوله تعالى:

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله: ﴿إِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِثُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ونحوهما من الآيات.

وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»^(٢).

فقوله: «احرص على ما ينفعك»؛ فيه الأمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل فيه

(١) «التوكل» (١٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

الأمر بالجد والاجتهاد في ذلك والحرص عليه نية وهمّة وفعلاً، وقوله: «واستعن بالله»، فيه الإيمان بقضاء الله وقدره والأمر بالتوكل عليه والاعتماد عليه والثقة به سبحانه.

وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل، قال: اعقلها وتوكل»^(١)، فأرشدته صلى الله عليه وسلم إلى الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عز وجل.

وروى الترمذي أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٢).

فذكر الأمرين معاً، فإن غدو الطير وهو ذهابها في الصباح الباكر هو سعي في طلب الرزق وجد واجتهاد في تحصيله.

قيل للإمام أحمد رحمه الله: «ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده، وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رُمحي»، وقال حين ذكر الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٣).

وبهذا يُعلم أن التوكل لا بدّ فيه من الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عز وجل، أمّا من عطّل السبب وزعم أنه متوكل فهو في الحقيقة متواكل مغرور، وفعله هذا ما هو إلا عجز وتفريط وتضييع.

(١) «جامع الترمذي» (٢٥١٧).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤).

(٣) ذكره ابن قدامة في «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٩٥).

فلو قال قائل مثلاً: إن قدر لي أدركت العلم اجتهدتُ أو لم أجتهد، أو قال: إن قدر لي أولاد حصلوا تزوّجتُ أو لم أتزوّج، وهكذا من رجا حصول ثمر أو زرع بغير حرث ولا بذر ولا سقي، وهكذا من يترك أهله وولده بلا نفقة ولا غذاء، ولا يسعى في ذلك متكلاً على القدر، فكلُّ ذلك تضييعٌ وتفريطٌ وإهمالٌ وتواكلٌ. قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «قد يظنُّ بعضُ الناس أن معنى التوكُّل تركُ الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة وكلحم على وضم، وهذا ظنُّ الجُهال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشرع»^(١). اهـ

أما من يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه فهذا توكُّله عجزٌ وخذلانٌ ونهايته ضياع وحرمان.

ولذا قال بعض العلماء: «الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قُدْحٌ في الشرع، وإنما التوكل والرَّجاء معنى يأتلف من موجب التوحيد والعقل والشرع». إن التوكُّل على الله مصاحبٌ للمؤمن الصادق في أموره كلها الدينية والدنيوية، فهو مُصاحبٌ له في صلاته وصيامه وحجّه وبرّه وغير ذلك من أمور دينه، ومُصاحبٌ له في جلبه للرِّزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه.

والتوكل أصل لجميع مقامات الدين ومنزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكُّل.

جعلنا الله من المتوكِّلين عليه حقاً، ومن المعتمدين عليه يقيناً وصدقاً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٣٦١).

٥- الحجُّ والتوبة

إِنَّ الْحَجَّ بَابٌ مَبَارَكٌ مِنْ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعَتَقِ مِنَ النَّارِ.

روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

وروى مسلم في «صحيحه» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه عِنْدَ إِسْلَامِهِ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»^(٢).

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٣).

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءُ؟!»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (١٨٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٥٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٤٩).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٤٨).

وروى النسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»^(١). وفي هذه الأحاديث دلالة على عظم شأن الحج وأنه باب عظيم لحط الأوزار وإزالة العثرات وغفران الذنوب والعق من النار.

والواجب على المسلم أن يُبادر إلى التوبة إلى الله ﻋَظِيمُ لينال بذلك الفلاح وليحصل وافر الأجر وعظيم الأرباح.

يقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ويقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨]. ويقول سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

والتوبة من أنبل الأعمال وأجلها، وهي من أحب الأعمال إلى الله وأكرمها، وللتائبين عنده محبة خاصة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، بل إنه سبحانه يفرح بتوبة التائبين مع أنه سبحانه غني حميد.

ففي «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة». وفي رواية لمسلم: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم

(١) «سنن النسائي» (٥/ ١١٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٩٠١).

كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»^(١).

وليُعلم أن باب التوبة مفتوح مهما بلغ الجرم وعظم الإثم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. بل لقد قال -جل وعلا- في شأن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٤٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴿[النساء: ١٤٥-١٤٦]. وقال في شأن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٣] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[المائدة: ٧٣-٧٤].

وقال في شأن أصحاب الأخدود الذين خدّوا الأخاديد لفتنة المؤمنين وإضلالهم عن دينهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٧).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياء الله وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»^(١).

ولهذا لا يحلُّ لأحد أن يُقنطَ الناسَ من رحمة الله مهما بلغت ذنوبهم وكثرت وتعددت، كما لا يحلُّ له أن يجزئهم على فعل المعاصي واقتراف الذنوب.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله وَجَّهًا»^(٢).

وعلى العبد أن يُبادر إلى التوبة وأن يُسارع إلى تحقيقها، قبل فوات الأوان، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الله وَجَّهًا يقبل توبة العبد ما لم يُغْرِغْ». رواه الترمذي^(٣). وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه». رواه مسلم^(٤).
والواجب كذلك أن يتوب العبد من كلِّ ذنب وأن يستوفي شروط التوبة لتكون توبته مقبولة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم «رياض الصالحين»: «قال العلماء: التوبة واجبة من كلِّ ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدميِّ فلها ثلاثة شروط:
أحدها: أن يُقلعَ عن المعصية.
والثاني: أن يندم على فعلها.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/٣٩٣).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/٩٩).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٥٣٧)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٧٠٣).

والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبداً.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح التوبة، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة، هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدّ قذف ونحوه مكنه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها.

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحّت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي^(١). اهـ
ونسأل الله أن يَمُنَّ على الجميع بالتوبة النصوح، وأن يتقبّل توبتنا، وأن يغسل حوبتنا، وأن يجيب دعوتنا إنه سميع مجيب.



(١) «رياض الصالحين» (ص ٧).

٦- لباس الإحرام والتذكير بالأكفان

إن عِبَرَ الحَجِّ الحج وفوائده لا تُحصى، وكم فيه من الدروس النافعة والعظات المؤثرة، ومن عظات الحَجِّ وعبره أن المسلم إذا وصل إلى الميقات الذي وقَّته رسول الله ﷺ للإحرام تجرَّد من ثيابه ولبس إزاراً على نصفه الأسفل، ورداءً على نصفه الأعلى مما دون الرأس.

وفي هذه الهيئة من اللباس يستوي الحُجَّاج، لا فرق بين الغني والفقير والرئيس والمرءوس، وتساويهم في هذا اللباس يذكِّر بتساويهم جميعاً في لباس الأكفان بعد الموت، فإنَّ الكلَّ يُجرَّدون من ملابسهم ويُلقون بلفائف بيضاء لا فرق فيها بين غنيٍّ وفقير.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «البسوا الثياب البيض، فإنَّها أظهر وأطيب، وكفَّونا فيها موتاكم»^(١). ولَمَّا مات سيدُ ولد آدم ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانية سحولية من كُرْسُف، ليس فيهنَّ قميص ولا عمامة»^(٢).

(١) «المسند» (٢٠١٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ١٢٦٤)، و«صحيح مسلم» (رقم ٩٤١).

وكلُّ من مات فهذا شأنه ؛ يُغسَّل ويُجَرَّد من ملابسه، ويُلفُّ بلفائف بيضاء، ثم يُصَلَّى عليه، ثم يدرج في القبر.

والحاج عندما يتجرَّد من لباسه في الميقات ويلبس الإحرام يتذكَّر هذه الحال ويتوارد على ذهنه هذا المآل، ويتذكَّر الموت الذي به تنتهي الحياة الدنيوية وتبتدئ الحياة الآخروية.

وكم هو عظيم ونافع للعبد أن يتذكَّر الرحيل، وأن يتذكر مفارقة الأنيس والخليل، وأن يتذكر أنه ليس له من ماله إلا الأكفان؛ أي: نصيبه في قبره من ماله، ثم مآلها إلى الخراب، يقول الشاعر:

نصيبك ممَّا تجمَعُ الدهرَ كلَّه رداء ان تُلوئِ فيهما وحنوطُ
ويقول الآخر:

هي القناعةُ لا تبغي بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن^(١)

وقد صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثرُوا ذكْرَ هاذم اللَّذاتِ»؛ يعني: الموت^(٢).

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كفى بالموت واعظاً». ومن تذكَّر الموت أقبل على الآخرة ولم تكن الدنيا أكبر همٍّ ولا مبلغ علمه، وذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها.

(١) انظر الأبيات في «التذكرة» للقرطبي (٢٨/١).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٠٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٢١٠).

ثم إن كَفَنَ الإنسان الذي يدخل معه في قبره لا ينفعه بشيء، وماله إلى البلى، مع أنه الشيء الوحيد الذي يدخل معه في قبره من دنياه، والذي ينفع الإنسان في قبره هو عمله الصالح.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يتبع أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(١).

ومن المعلوم أن الإنسان لا بد له من أهل يؤانسهم، ومال يعيش به، وهذان مفارقان له وهو مفارق لهما ولا بد، والسعيد من اتخذ من ذلك ما يكون عوناً له على الخير والطاعة، وأما من اتخذ أهلاً ومالاً يشغله عن الله فهو خاسر، كما قالت الأعراب: ﴿شَغَلْتَنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١]. وقال تعالى: ﴿لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ومن مات فإنه لا ينتفع من أهله وماله بشيء إلا بدعاء أهله له واستغفارهم، وبما قدمه من ماله بين يديه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

(١) «صحيح البخاري» (٦٥١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٩٦٠).

وانظر شرح هذا الحديث في رسالة للحافظ ابن رجب مطبوعة بعنوان: «جزء فيه الكلام على حديث يتبع الميت ثلاث».

فكل ما كان للإنسان من مال وأهل فإنه تاركه وراء ظهره غير منتفع منه بشيء إلا دعوة من أهله أو نفقة قدّمها من ماله.

ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعوه له»^(١).

والأهل قد يدعون له وقد لا يدعون، والمال الذي كان يمتلكه لا ينتفع منه بشيء في قبره إلا بما كان قدّمه بين يديه، فإنه يقدّم عليه وهو داخل في عمله الذي يصحبه في قبره، وما سوى ذلك من ماله قلّ أو كثر فهو لورثته لا له، وهو إنما كان عليه بمثابة الحارس والخازن.

ففي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت»^(٢).
وفي «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا ماله أحب إليه، قال: فإنّ ماله ما قدّم، ومال وارثه ما آخر»^(٣).

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾

[الروم: ٤٤].

قال بعض السلف: «أي في القبر»؛ يعني: أن العمل الصالح يكون مهاداً

(١) «صحيح مسلم» (١٦٣١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٥٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٤٤٢).

لصاحبه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كلُّ عامل يفتersh عمله ويتوسَّده من خير أو شرٍّ^(١).

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «قال لي جبريل: يا محمد عَشْ ما شئت فإنك ميت، وأحببَ مَنْ شئتَ فإنك مفارقه، واعمل ما شئتَ فإنك مُلاقيه»^(٢).
نسأل الله لنا جميعاً صلاح الأمر وحسن العاقبة، والتوفيق لِمَا يحبُّه ويرضاه.



(١) انظر: رسالة ابن رجب: «جزء فيه الكلام على حديث: يتبع الميت ثلاث» (ص ٤٠).

(٢) رواه الطيالسي (١٨٦٢)، والحاكم (٣٢٥ / ٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٥٥).

٧- الحجُّ ومكانة العلماء

إن من الدروس الرائعة التي تظهر لكل متبصّر في الحج مكانة العلماء ورفعة مقامهم وعلو قدرهم وسمو منزلتهم، فترى الحجاج يسألون عنهم ويبحثون عن أماكنهم، ويحرصون على التفقه عليهم ويطرحون عليهم سؤالاتهم في أمور الحج وغيره، ويغتنبون بسماع أجوبتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم.

قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: «إنه ليزيدني في الحج رغبة لقاء عمرو بن دينار، فإنه يحبنا ويفيدنا»^(١).

وقال الذهبي رحمه الله: «ولقد كان خلق من طلبة الحديث يتكلفون الحج وما المحرك لهم سوى لقي سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلو إسناده»^(٢).

ولا ريب في رفعة مكانة العلماء؛ إذ هم في الخير قادة، تقتص آثارهم، ويُقتدى بأفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، تضع الملائكة أجنحتها لهم رضا بصنيعهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان في الماء.

بلغ بهم علمهم منازل الأخيار ودرجات المتقين الأبرار، فسَمَت به منزلتهم وعلت مكانتهم وعظم شأنهم وقدرهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) «السير» (٥/٣٠٣).

(٢) «السير» (٨/٤٥٧).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وبجميل نصحهم وحسن توجيههم وتمايم بيانهم يعرف الناس الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، والحق من الباطل.

قال العلامة الإمام أبو بكر الآجري رَحِمَهُ اللهُ وهو يتحدث عن مكانة العلماء: «فضّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كلّ زمان وأوان، رفعهم الله بالعلم وزيّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح، فضّلهم عظيم، وخطرهم جليل. ورثة الأنبياء وقرّة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العباد وأعلى درجة من الزهاد.

حياتهم غنيمة وموتهم مصيبة، يذكرون الغافل ويُعلمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة...».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «فهم سراج العباد ومنار البلاد وقوام الأمة وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وإذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا»^(١). اهـ

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة العالية المنيفة، فإن الواجب على من سواهم أن يحفظ لهم قدرهم ويعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، قال رَحِمَهُ اللهُ: «ليس من أمتي من لم يُجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف

(١) «أخلاق العلماء» (ص ١٣-١٤).

لِعَالَمِنَا حَقَّهُ»^(١).

وقال ﷺ: «أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»^(٢).

فلا بدَّ من معرفة منزلة العلماء وحفظ حقوقهم؛ حيَّهم وميَّتهم شاهدهم وغائبهم، بالقلوب حبًّا واحترامًا، وباللسان مدحًا وثناءً، مع الحرص على التزوُّد من علومهم والإفادة من معارفهم، والتأدُّب بآدابهم وأخلاقهم، والبعد عن النيل منهم، أو اللَّمز لهم، أو الوقيعه فيهم، فإن ذلك من أعظم الإثم وأشدَّ اللُّؤم. إن العلماء هم القادة لسفينة النجاة، والرواد لساحل الأمان، والهداة في دياجر الظلام: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِبَآئِنَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وهم حجة الله في الأرض، وهم أعلم بما يُصلح المسلمين في دنياهم وآخرهم؛ لما آتاهم الله من العلم، ولما حباهم به من الفقه والفهم، فهم عن علم ثاقب يُفتون، وببصر نافذ يقرِّرون، وعن نظر بصير يحكمون، لا يُلْقون الأحكام جُرأً، ولا يصدعون صفوف المسلمين فتًا وإرجافًا، ولا يبتدرون إلى الفتاوى دون تحقيق وتدقيق تهاونًا وإسرافًا، ولا يكتمون الحقَّ عن الناس غمطًا لهم أو تكبرًا واستنكافًا.

ولهذا أمر الله بالردِّ إليهم دون سواهم وسؤالهم دون غيرهم، قال الله تعالى:

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

الرَّسُولِ وَالْإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

(١) «المسند» (٢٢٧٥٥)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الجامع» (٥٤٤٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٨٤٢).

وهذا فيه تأديبٌ للمؤمنين بأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمة والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا، وأن يردُّوا ذلك إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل العلم والنُّصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدَّها، فمن صدر عن رأيهم سلم، ومن افتات عليهم تضرَّر وأثم.

وإن من علامات الضياع البعد عن العلماء الراسخين، وترك التعويل على فتاوى الأئمة المحققين، ونزع الثقة بالفقهاء المدققين.

وحين تفقد الأمة الثقة بالعلماء يُصبح شأنها كأناس في صحراء قاحلة بلا قائد ناصح يقودهم ولا هادٍ خرَّبت يدهم، فيئول أمرهم إلى العطب، وتكون نهايتهم إلى التلُّف.

فالعلماء هم الذي لهم الصدارة في دعوة الأمة وتوجيه مسارها وإرشاد يقظتها، وإن لم يكن الأمر كذلك اتخذ الناس رؤساء جهَّلاً فأفتوهم بغير علم ودلُّوهم بغير فهم، وحينئذ يحلُّ الوهن ويعظم الخلل وتغرق السفينة.

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُفتقر إليه أو يُفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتَّبَدُّع، وإياكم والتنطُّع، وإياكم والتَّعمُّق، وعليكم بالعتيق»^(١).

فلعلك أيها الحاجُّ الموفق وأنت ترى حرص الناس على الاستفادة من العلماء

(١) «سنن الدارمي» (١٤٣).

في أحكام الحجّ، وحرصهم على سؤالهم والإفادة من علومهم تُدرك فضيلة العلماء وحاجة الأمة إليهم وإلى علومهم وأهمية سؤالهم والاستفادة منهم في جميع أمور الدين.

وكما أنك تستفيد من العلماء في أحكام الحج وتستفتيهم عمّا يُشكل عليك منها فلتستفد منهم ولتستفتهم في صلاتك وصيامك وزكاتك، وجميع أمور الدين؛ لتعبد الله على نور وبصيرة.

ونسأل الله الكريم أن يُبارك في علمائنا، وأن يُوفّقنا لحسن الاستفادة منهم، وأن يجزيهم عنا وعن المسلمين خير الجزاء، إنه سميعٌ مجيب.



٨- الحج والتقوى

لقد أكثر الله ﷻ في آيات الحج على قلتها من الوصية بالتقوى؛ لأنه يحصل في الحج من أسباب التقوى ما لا يحصل في غيره، وذلك مع الوعي الصحيح لحقيقة الحج ومغزاه.

وقد تكررت الوصية بتقوى الله في سياق آيات الحج من سورة البقرة. ففي الآية الأولى من هذه الآيات قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وفي أثناء هذه الآيات قال سبحانه: ﴿وَتَكَزَّوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَأْتُوا لِي الْأَلْبَبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وختم - جل وعلا - آيات الحج بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والتقوى هي أعظم وصية وخير زاد ليوم المعاد، وهي وصية الله للأولين والآخرين من خلقه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وهي وصية النبي الكريم ﷺ لأُمَّته، فقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وكان كثير الوصية بها في خطبه، ولمّا خطب الناس في حجة الوداع يوم النحر وصّى الناس بتقوى الله.

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، وذلك لأنها خير زاد يبلغ إلى رضوان الله.

ولمّا قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اتق الله، أجابه عمر بقوله: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقلها»، والنقول عن السلف في هذا كثيرة^(١).

وللتقوى على أهلها منافع عظيمة وثمار كريمة وفوائد جمّة في الدنيا والآخرة. فمن ثمارها: حصول العلم النافع، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. ومن ثمارها: الخروج من المحن وتحصيل الرزق الطيب وتيسر الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. ومن ثمارها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. و﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ومن ثمارها: نيل الفلاح والفوز بالمغفرة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]. ومن ثمارها: حصول الرفعة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ١٥٠ / ١٥١).

وحصول العاقبة الحميدة، قال الله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:

.[١٢٨]

ومن أجل ثمارها: دخول جنة الله والتشرف برؤيته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وثمار التقوى لا تُحصى، وفضائلها لا تُستقصى، وأكرم الناس عند الله أعظمهم

تقوى له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وتقوى الله -جل وعلا-: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويخشاه من

غضبه وعقابه وقايةً تقيه، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «الْمُتَّقُونَ اتَّقُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَدُّوا

ما فرض عليهم».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام

الليل مع التخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حَرَّمَ الله وأداء ما افترض

الله».

وقال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللهُ: «تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله

ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»^(١).

وأساس التقوى هو القلب، كما قال رَحِمَهُ اللهُ: «التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره

ثلاث مرّات»^(٢).

فمتى أصلح العبد قلبه صلح البدن كله تبعاً لذلك، ومتى خضع القلب

لطاعة الله خضعت الجوارح، كما قال رَحِمَهُ اللهُ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت

(١) انظر هذه الآثار في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ١٤٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

والله - جل وعلا - لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢).
وإن مما يُعِينُ العبد على تحقيق التقوى والعناية بها: أن يتذكر الموت والوقوف بين يدي الله والجزاء والحساب والجنة والنار.

ولقد أحسن من قال:

فيا عجباً ندري بنارٍ وجنةٍ	وليس لذي نشتاقُ أو تلك نحذرُ
إذا لم يكن خوفٌ وشوقٌ ولا حياءُ	فماذا بقي فينا من الخير يذكرُ
وليس لحرٍّ صابرين ولا بلأى	فكيف على النيران يا قوم نصبرُ
نبيع خطيراً بالحقيرِ عماية	وليس لنا عقلٌ وقلبٌ منورُ
فطوبى لمن يؤتى القناعة والثقى	وأوقاته في طاعة الله يعمُرُ

إن وصية الله بالتقوى المتكررة في آيات الحج ودعوته سبحانه لأولي الألباب إلى تقواه تدل على أن أهل العقول والألباب ينبغي عليهم وقد أكرمهم الله بالحج أن يعملوا عقولهم وألبابهم في تلك المشاعر العظيمة ليستفيدوا منها تقوى الله، فالحج مدرسة عظيمة للتقوى وباب عظيم من أبوابها.
والواجب على من أكرمه الله بالحج أن يستفيد من حجه تقوى الله، وأن

(١) «صحيح البخاري» (٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٥٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

يتزود فيه بزادها المبارك، وأن ينهل من معينها العذب، وأن يتقي الله بصيانة حجة عن الرّفث والفسوق والجدال، وأن يتقي الله بحفظ وقته عن كلّ إسفاف، وأن يشغله بذكر الله والنافع من القول.

وأن يتقي الله بالحرص على اتباع السنة ولزوم هدي خير الأمة محمد ﷺ، وبالحدّ من البدع والأهواء، وأن يتقي الله في مراعاة جميع أعمال الحجّ من ركن وواجب ومستحبّ دون تساهل أو إهمال.

وأن يتقي الله بالتفقه في دينه والإتيان بعبادته على بصيرة. وأن يتقي الله في إخوانه المسلمين من الحُجّاج وغيرهم، وأن يكون عوناً لهم على كلّ خير يلقاهاهم بطلاقة وجهٍ وصفاء قلب وحسن الحديث.

ويتقي الله بتوقير الكبير ورحمة الصغير وتعليم الجاهل وإرشاد الضال، وأن يتقي الله بحفظ لسانه وغضّ بصره وكفّ يده، وأن يتقي الله باجتناّب الغشّ والكذب والشحّ والسبّ والبذاء وسوء الظنّ.

وكلّما عظم نصيبه وحظّه في حجه من التقوى عظم حظّه ونصيبه من الأجر والثواب، وغفران الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣]؛ أي: فلا إثم عليه لحطّ الله ذنوبه إن كان قد اتقى الله في حجه فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه وفعل ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده^(١).

جعلنا الله جميعاً من المتقين، وسلك بنا صراطه المستقيم، إنه سميع مجيب.



(١) «جامع البيان» للطبري (٣/ ٣٠٩).

٩- يوم عرفة والتذكير بالموقف يوم القيامة

إن من عبر الحج العظيمة ومواقفه المؤثرة غاية التأثير ذلكم الجمع العظيم والموقف المبارك الذي يشهده جميع الحجاج يوم عرفة على أرض عرفة، حيث يقفون جميعاً ملبيين ومبتهلين إلى الله، يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويسألونه من فضله العظيم، في أعظم تجمع إسلامي يُشهد.

وهذا الاجتماع الكبير يذكر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأولون والآخرين ينتظرون فصل القضاء ليصيروا إلى منازلهم، إما إلى نعيم مقيم أو إلى عذاب أليم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي مِيمَتِهِ:

فلله ذاك الموقفُ الأعظمُ الذي كموقف يوم العرضِ بل ذاك أعظمُ

ولا ريب في عظم يوم العرض، يقول الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾

[الكهف: ٤٨].

ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

ففي ذلك اليوم العظيم يجمع الله جميع العباد، كما قال سبحانه: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ

إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التغابن: ٩].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ جَمْعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرين، فالكُلُّ مجموع إلى ذلك الميقات العظيم ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

ولن يتخلف عن هذا الجمع أحدٌ، مَنْ هلكوا في أعماق البحار، وَمَنْ ضَلُّوا في بطون الأرض، وَمَنْ أَكَلَتْهُمْ الطيورُ والسَّباعُ، الكلُّ سيُجمع ولا مفرَّ.

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿أَيَنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[البقرة: ١٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ

أَخَصَّاهُمْ فِي ذَلِكَ يَوْمٍ الْغِيَمَةِ فَرَدَّا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وسيُجمعون على أرض غير هذه الأرض، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ

الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقد بين لنا الرسول ﷺ صفة هذه الأرض التي يُجمع عليها الناس، ففي صحيح

البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ

الناسُ يومَ القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرْصَةِ النَّقِيِّ ليس فيها عِلْمٌ لأحد»^(١)؛

أي: على أرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا جبال ولا صخور، وليس

فيها علامةٌ سكنى أو بناء.

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٠).

ويُجمعون حُفَاةً لا نعال عليهم، عُرَاةً لا لباس عليهم غُرُلًا؛ أي: غير مختونين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حُفَاةً عُرَاةً غُرُلًا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»^(١).

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أنها لما سمعت النبي ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرُلًا» قالت: يا رسول الله، الرِّجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟

قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(٢).

وفي ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فلا ظل في ذلك اليوم إلا ظلُّ عرش الرحمن، فمن مستظلٌّ بظلِّ العرش، ومن مُضْحٍ بحرَّ الشمس، قد صهرته واشتدَّ فيها كربُه وأقلقته، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضهم بعضًا، واختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش. قد اجتمع عليهم في موقفهم حرُّ الشمس مع وَهَجِ أنفاسهم وتزاحم أجسامهم، ففاض العرقُ منهم على وجه الأرض، ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربِّهم من السعادة والشقاء.

فمنهم من يبلغ العرقُ منكبيه وحقويه، ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من قد ألجمه العرقُ إلجامًا^(٣)، نسأل الله العافية والسلامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٩).

(٣) انظر: «التذكرة» للقرطبي (٣٥٧/١).

يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم». رواه البخاري^(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كقدر ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه^(٢).

ويكون وقوفهم في يوم مقداره خمسون ألف سنة، قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. وفي «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأحمر عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(٣).

ويهوّن الله أمر الوقوف على أهل الإيمان -نسأل الله الكريم من فضله-، ففي المستدرک للحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٣٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٨٧).

(٤) «المستدرک» (٨٤ / ١)، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح الجامع» (٨١٩٣).

وَيُظْلَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي ظِلِّهِ الظَّلِيلِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، ويقول سبحانه في ذلك الموقف العظيم: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(١).

وفي ذلك اليوم يَفْرَعُ النَّاسُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَنْ يَبْدَأَ فِي الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَعْتَذِرُونَ إِلَّا نَبِيَنَا مُحَمَّدًا ﷺ، فإنه يقول: «أَنَا لَهَا»، فيذهب ويخِرُّ ساجداً تحت العرش لربِّ العالمين، ويفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح عليه أحدٌ قبله ثم يقول له: «ارفع رأسك وَاسْلُ تَعْطَ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ»، وحينئذ يجيء الربُّ - جل وعز - للفصل بين العباد. قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ لَئِنْ لَمْ يَدَّكُرْ ۚ يَقُولْ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۚ﴾ [الفجر: ٢٢-٢٤].

تَذَكَّرَ يَوْمَ تَأْتِي اللَّهَ فَرْدًا وَقَدْ نُصِبَتْ مَوَازِينُ الْقَضَاءِ
وَهُتَّكَ السُّتُورُ عَنِ الْمَعَاصِي وَجَاءَ الذَّنْبُ مِنْكَشَفِ الْغَطَاءِ^(٢)

فتفكر في هذا اليوم الذي وُصف لك، وفي هذا الحال الذي حُدِّثَ عنه، وأعدَّ له عدته، وعليك بتقوى الله، فإنها خيرُ زاد، وقد قال الله تعالى في ختام آيات الحج: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

جعلنا الله وإياكم من عباده المتقين، وأعاذنا جميعاً من خزي يوم الدين، وجعلنا بمنه وكرمه يوم الفرع من الأمنين.



(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٦).

(٢) انظر البيتين في «التذكرة» للقرطبي (١٧/٢).

١٠- الحجُّ والرابطةُ الإسلامية

إن من مجالات الحجِّ المباركة في تهذيب النفوس ما يشهده الحاجُّ في يوم عرفة من تجمع عظيم وتجمهر كبير، بل هو أعظمُ تَجْمَعٍ إسلاميٍّ، وفي هذا التجمع الإسلامي الكبير وكذا في بقيَّة المشاعر يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها.

فيتعارفون ويتناصحون، ويتعرَّف بعضهم على أحوال بعض، فيتشاركون في الأفراح والمسرات، كما يُشارك بعضهم بعضاً في آلامه ويُرشده إلى ما ينبغي له فعله، ويتعاونون جميعاً على البرِّ والتقوى، كما أمرهم الله سبحانه بذلك.

وفي هذا اليوم المبارك يوم عرفة يكثرُ الحجاجُ من قول لا إله إلا الله، فهي خيرُ ما يُقال في هذا اليوم، بل هي خير الكلمات على الإطلاق وأحبُّها إلى الله، وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير»^(١).

وفي هذا إشارة عظيمة إلى أن اجتماع المسلمين لا يكون إلا على التوحيد لله والمتابعة للرسول ﷺ؛ إذ بهما تذوب الأهواء وتتبدد العداوة والبغضاء، وتلتقي

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/

القلوبُ وتجتمع الكلمة وتتحد الصفوف، وكلما ضعُف استمسكُهم بهذه الكلمة ضعُف حظُّهم من الاجتماع والألفة بحسب ذلك.

ثم إن هذه الجموع الغفيرة على اختلاف ألوانهم وتباين ألسنتهم وتباعد بلدانهم قد اجتمعوا على مقصد واحد وغاية واحدة، تتضح من خلال هذه الكلمة التي يهتفون بها ويُردِّدونها، فالذي جمعهم هو توحيد الله والإيمانُ به، والذي أَلَفَ بينهم هو الخضوعُ لله والتذللُ بين يديه رغبًا ورهبًا، رجاءً وخوفًا، حبًّا وطمعًا.

فكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي الرابطة الحقيقية التي اجتمع عليها أهل دين الإسلام، فعليها يُوالون ويُعادون، وبها يُحبُّون ويبغضون، وبسببها أصبح المجتمعُ المسلم كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «أضواء البيان»: «والحاصلُ أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلِّف المختلف هي رابطة لا إله إلا الله، ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجمع المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنما هي

الإيمان بالله - جل وعلا -».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «وبالجملة فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة لا إله إلا الله، فلا يجوز ألبة النداء برابطة غيرها»^(١). اهـ

وتقريراً لهذا المعنى العظيم وتأكيداً عليه:

روى الإمام أحمد في «مسنده»^(٢) عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟» قالوا: بلغ رسول الله ﷺ. ومن منافع الحج العظيمة تقوية هذه الرابطة وتوثيق هذه الصلة، فالرب المعبود واحد، والقبلة المتوجه إليها واحدة، والرسول المتبع واحد، ولباس الإحرام، ومشاعر الحج وأعماله واحدة، ومكان تجمع المسلمين وزمانه واحد، وشعار الجميع «لبيك اللهم لبيك» خضوعاً واستكانةً وانقياداً وامثالاً، فأى رابطة أوثق من هذه، وأي صلة أعظم من هذه الصلة.

ألا فليع المسلمون ذلك، وليحمدوا ربهم على هذا الوشاج المبارك والوفاق الكريم، والحب والإخاء، وليسع كل واحد منهم في تحقيق كل ما يقوي هذه الصلة وينميها، وليبتعدوا عن كل أمر يضعفها ويوهيها.

ومن الدعوات الماثورة: «اللهم أصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا واهدنا

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٢) «المسند» (٢٣٤٨٩)، قال ابن تيمية في «الافتضاء» (١/ ٤١٢): بإسناد صحيح، وصححه

الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٦/ ٤٥٠).

سُبُل السلام، وأخرجنا من الظلمات إلى النور».

وليطرح الجميعُ العصبية العرقية، والشعارات القومية، والنَّعرات الجاهلية، والتحزبات الضيقة.

روى أبو داود وغيره بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجالٌ فخرهم بأقوام إنما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها الثََّن»^(١).

وفي المسند للإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى»^(٢).

ثم إن من استطال على غيره بنسب أو غيره بحق فقد افتخر، وإن استطال على غيره بغير حق فقد بغى، والفخرُ والبغي كلاهما محرَّم، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغى أحدٌ على أحد»^(٣).

فنهى سبحانه فيما أوحاه إلى نبيه ﷺ عن نوعي الفخر والبغي اللذين هما استطالة على الخلق، فمن استطال بحق فقد افتخر، ومن استطال بغير حق فقد بغى، ولا يحلُّ هذا ولا ذاك.

نعوذ بالله من الفخر والخيلاء، ومن البغي والظلم، ونعوذ به من كلِّ خطيئة

(١) «سنن أبي داود» (٥١١٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٧٨٧).

(٢) «المسند» (٢١٤٠٧).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

وإثم، ونسأله سبحانه أن يجمع المسلمين على البر والتقوى، وأن يصلح ذات بينهم وأن يؤلّف بين قلوبهم، وأن يهديهم سبل السلام، وأن يوحد صفوفهم، وأن يجمع كلمتهم، وأن يُبطل كيدَ عدوّهم، إنه سبحانه سميع مجيب.



١١- الحجُّ وزيادةُ الإيمان

إن في الحج مجالاً واسعاً لإصلاح النفوس وتهذيب القلوب وزيادة الإيمان، وكم في الحج من الدروس الرائعة والعبر المؤثرة في إقبال القلوب على الله، وشدة رغبتها ورهبها، ورجائها وخوفها، وكثرة رجوعها وإنابتها.

فكم من دمة صادقة في الحج أريقَت، وكم من توبة نصوح قُبِلت، وكم من عشرة أُقِيلت، وكم من خطيئة حُطَّت، وكم من دعاء خاشع أُجيب، وكم من رقبة من النار أُعتقت.

وعندما نتأمل نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بالحج نجد فيها من الضوابط العظيمة والتوجيهات الحكيمة التي تحقق للعبد صلاحاً وزكاءً في حجّه، بل في حياته كلّها، كقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فكم في هذه النواهي ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ من دعوة وتوجيه إلى كبح جماح النفس والحد من ميلها إلى رغباتها وشهواتها، وكم في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ من دعوة إلى المسارعة في فعل الخيرات والمسابقة لأداء الطاعات.

وكم في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ من دعوة لأخذ الأهبة

والاستعداد بالتزود ليوم المعاد، كشأن المسافر الذي يأخذ زاده معه في سفره. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الناس منذُ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبنِيٌّ على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادةً أن يطلب فيه نعيمًا ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر»^(١). اهـ

إلا أن العبد يأتيه في هذه الحياة من الصوارف والشواغل والمُلَهِيَّات ما يشغله عن أخذ الزاد ليوم المعاد، ويذهبُ جِدَّةَ إيمانه وجماله وحيويته، بل لقد أخبر النبي ﷺ أن الإيمان قد يَخْلُقُ في جوف الإنسان، فيحتاج العبدُ إلى تجديده والسعي في تقويته.

روى الحاكم في المستدرک والطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان لِيَخْلُقُ في جوف أحدكم كما يَخْلُقُ الثوبُ، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»^(٢). فوصف -عليه الصلاة والسلام- الإيمان بأنه يَخْلُقُ كما يخلق الثوب، أي: يبلى ويضعف ويدخله الوهن والنقص من جرّاء ما يلقيه العبد في هذه الدنيا من فتن ومُلَهِيَّات، وما يقع فيه من معاصٍ وذنوب. وأرشد -عليه الصلاة والسلام- إلى تعاهد الإيمان والعمل على تقويته، وسؤال الله زيادته وثباته.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

(١) «الفوائد» (ص ١٩٠).

(٢) «المستدرک» (٤/١)، «المعجم الكبير» (١٤٦٦٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الجامع» (١٥٩٠).

الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [الحجرات: ٧-٨].

فمن الخير للعبد أن ينصح لنفسه في إيمانه الذي هو أغلى شيء لديه وأثمن شيء عنده، وخير زاد يلقي به ربه ﷻ.

ومجالات تقوية الإيمان وأسباب زيادته عديدة ومتنوعة، ومن هذه المجالات العظيمة الحج، فهو يهدم ما كان قبله، والمبرور منه ليس له جزاء إلا الجنة، ومن أدّاه بلا رفث ولا فسوق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وهو ينفي الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، كما صحت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

وكم كان الحج نقطة تحول في حياة كثير من الناس من سيئ إلى حسن ومن حسن إلى أحسن، والشواهد على هذا والوقائع المؤكدة له تفوق الحصر. وكم من حاج تحرّى مواطن الإجابة في الحج ومد يديه إلى ربه خاشعاً متذللاً طامعاً في فضله العظيم، وسأله أن يجدد الإيمان في قلبه وأن يثبت عليه، وأن يصرف عنه الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يصلح له دينه ودنياه وآخرته، وأن يزيّنه بزينة الإيمان، وأن يجعله من الهداة المهتدين.

والله ﷻ لا يُخيب عبداً دعاه ولا يرد عبداً نجاه، وهو القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»^(١).

(١) رواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» (١١٥٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٨٢٠).

فحريٌّ بمن أكرمه الله بالحج أن يكون في حجه مخبئاً لربه متواضعاً لجناحه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمته ومغفرته ويخاف عذابه ومقته، تائباً من كل ذنب اكتسبته يداه، ومن كل خطيئة مشت إليها قدماه، مُكثرًا من الذكر والدعاء والاستغفار والتضرُّع، لينقلب من حجه خير منقلب، وليعود إلى أهله وبلده على خير حال.

فيبدأ صفحةً جديدةً في حياته، عامرة بالطاعة والصالح والاستقامة، بقلب مطمئنٍّ ونفس منيية وفؤاد مخبت، سائلاً ربه الثبات على الإيمان والسلامة من الفتن.

أليس من الجدير بالحاج أن يتنبه لهذا الأمر الجلل العظيم، ليربح من حجه ويستفيد، ولا سيما مع كثرة الأمور التي تضعف الإيمان في هذه الحياة، فما بالنا لا نستفيد من هذا الباب المبارك لتقويته وتتميمه وتكميله، فإن الحجَّ إيمانٌ، وما يقع فيه من مواهب وكمالات كل ذلك كمالٌ في الإيمان وقوة.

والعبدُ المؤمن الموفق لا يزال يسعى في تحقيق أمرين عظيمين ومقصدتين

جليلين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقيق بها علماً وعملاً.

والثاني: السعي في دفع ما يُنافيه وينقضه أو ينقصه من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

وتأمل هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فذكر سبحانه الأمرين دفع المفسدات والمنقصات، والسعي في تحصيل الخيرات والكمالات.

نسأل الله - جل وعلا - أن يُصلحَ لنا جميعاً ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلحَ لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلحَ لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالّين ولا مضلّين، إنه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



١٢- الحج وإرغام الشيطان

روى الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ فِي مَوْطِئِهِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا رُؤِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَدْحَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ»^(١)، وَهَذَا حَدِيثٌ مُرْسَلٌ.

وَفِي نَصُوصِ الشَّرْعِ شَوَاهِدٌ عَدِيدَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَعْنَاهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - وَمَا مِنْ رَيْبٍ فِي ذَلِكَ - يَغِيْظُهُ وَيَسُوءُهُ تَنْزُلُ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ عَلَى عِبَادِ اللهِ، وَصَفْحُهُ وَعَفْوُهُ عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ، وَعَتَقَهُ لِرِقَابِهِمْ مِنَ النَّارِ، أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ فَسَجَدَ؛ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»^(٢).

وَلِهَذَا فَإِنَّ عَدُوَّ اللهِ حَرِيصٌ غَايَةَ الْحَرَصِ عَلَى إِفْسَادِ حُجِّ الْإِنْسَانِ وَتَفْوِيتِ ثَوَابِهِ عَلَيْهِ مِنْ خِلَالِ سَبِيلٍ عَدِيدَةٍ وَمَسَالِكٍ مُتَنَوِّعَةٍ بَدَأَ مِنْ أَوَّلِ مَسِيرِ الْإِنْسَانِ وَانْطِلَاقِهِ إِلَى الْحَجِّ، وَمَرُورًا بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَسَائِرِ مَنَاسِكَهْ وَيَجْنِدُ لِذَلِكَ جُنُودَهُ وَيُهَيِّئُ لِذَلِكَ عَتَادَهُ.

(١) «الموطأ» (١٢٦٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٨١).

يقول الإمام مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللهُ: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عُدَّتِهِمْ». رواه ابن أبي حاتم في تفسيره^(١).

ويشهد لهذا قول الله تعالى عن عدوّه إبليس: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَا يَنَالُهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: «طريق مكة»، وهذا بلا ريب من صراط الله المستقيم الموصول إلى رضوانه والمفضي إلى جنة النعيم، والصراط معناه أوسع من هذا.

ولذا قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «والذي قاله عون وإن كان من صراط الله المستقيم، فليس هو الصراط كله، وإنما أخبر عدو الله أنه يقعد لهم صراط الله المستقيم، ولم يُخَصِّصْ منه شيئاً دون شيء؛ لأن الخبيث لا يألو عباد الله الصدد عن كل ما كان لهم قُرْبَةً إلى الله»^(٢). اهـ

وفي «المسند» للإمام أحمد من حديث سَبْرَةَ بن فاكِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وأبيك؟ قال: فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول.

قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويُقَسَّمُ المال؟

(١) ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/١٠٩).

(٢) «جامع البيان» (٥/٤٤٤).

قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قُتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابةً كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(١).

والشاهد من هذا الحديث: أن الشيطان جالسٌ للإنسان في كلِّ طريق، وهو أحرصُّ ما يكون عليه عندما يهْمُ بالخير أو يدخل فيه، فهو يشتدُّ عليه حينئذٍ ليقطعه عنه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجَنِّ تَفَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي»^(٢).

وكَلَّمَا كان الفعلُ أنفعَ للعبد وأحبَّ إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر، فهو عدوٌّ لدودٌ للمؤمنين، لا همَّ له ولا غاية إلا إفسادُ عقائدهم وهدمُ إيمانهم، واخللةٌ يقينهم، وصرفهم عن السبيل المفضية إلى رضوان الله والجنة. ولهذا؛ فإن الله حذّرنا منه أشدَّ التحذير، وبَيَّن لنا أخطاره وعواقب اتّباعه الوخيمة، وأنه عدوٌّ للمؤمنين، وأمرهم أن يتَّخذوه عدوًّا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

(١) «المسند» (١٥٩٥٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦١)، و«صحيح مسلم» (٥٤١).

وقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَبْرُدُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فالواجب على العاقل أن يأخذ حذرَه من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم - عليه الصلاة والسلام -، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله بالحذر منه...»^(١)، ثم ذكر نصوصاً عديدة في التحذير منه ومن كيده.

والآيات في التحذير منه ومن كيده كثيرة، والعبد لا وقاية له من الشيطان إلا بالالتجاء إلى الله والتعوذ به من شره وملازمة ذكره والمحافظة على طاعته، ومن استعاذ بالله أعاده الله وحفظه ووقاه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَزْغَنَّاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال: ﴿قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٧-٩٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿[الناس: ١-٦].

ومن لازم ذكر الله كان في حصن من الشيطان وفي حرز من شره، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن النبي ﷺ: «أن يحيى بن زكريا عليه السلام قال لقومه: ... وأمركم بذكر الله كثيراً، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا

(١) «تلبيس إبليس» (ص ٢٣).

في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله»^(١).

والشيطان لا سلطان له على أهل الإيمان الملتجئين إلى الله المعتمدين عليه سبحانه، فإن الله يحفظهم منه ويصرف عنهم كيده وشره، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

فبين سبحانه في هذه الآية السبب الأقوى في دفع الشيطان، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل على الله، فإن الشيطان ليس له قدرة على التسلط على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

والفقه في دين الله حرز من الشيطان؛ لأن العلم الشرعي نور لصاحبه، ومن تبصر بنور العلم وعرف مصائد الشيطان وحبائله ووسائله وطرائقه، وعرف نهاية أتباعه ومآل أوليائه، حذره أشد الحذر، واعتصم بالله منه واستعاذ به سبحانه من شره، وسلك صراط الله المستقيم الذي لا خوف على أهله ولا هم يحزنون. فنسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الشيطان الرجيم، وأن يهدينا جميعاً صراطه المستقيم، إنه سميع مجيب.



(١) «المسند» (١٧٨٠٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

١٣- الحج والاستغفار

كثيراً ما يأمر الله بالاستغفار، ولا سيما في نهاية الطاعة وعند إتمام العبادة، قال الله تعالى في آيات الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

والمراد بالإفاضة هنا؛ أي: إلى منى، حيث يقوم الحاج بإكمال أعمال الحج التي هي آخر أعماله، وأمر سبحانه في هذه الأثناء بملازمة الاستغفار، ليكون جابراً لما حصل من العبد من نقص ولما وقع منه من تقصير.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ: «والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي، والمبيت بمنى ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك. ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكره، والمذكورات آخر المناسك؛ أمر الله تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره؛ فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكرُ الله شكرُ الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنّة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ومنّ بها على ربّه، وجعلت له محلاً ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل كما أن الأول حقيق بالقبول

والتوفيق لأعمال آخر» اهـ

وقد كان من هدي النبي ﷺ ختم الأعمال الصالحة بالاستغفار، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم»: «أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً»^(١).
وورد ختم صلاة الليل بالاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وكان يختم مجالسه بالاستغفار، روى أبو داود عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»^(٢).
وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»^(٣).

بل لقد ختم -عليه الصلاة والسلام- حياته العامرة بتحقيق العبودية وكمال الطاعة بالاستغفار، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مُسْنِدٌ إليها ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحِقْني بالرفيق الأعلى»^(٤).

مع ملازمة عظيمة منه للاستغفار في أيام حياته الزكية.

(١) «صحيح مسلم» (٥٩١).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٨٥٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الترغيب» (١٥١٧).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٤٣٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الترغيب» (١٥١٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٤٤٠).

روى مسلم في «صحيحه» عن الأغر المزني رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُّ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

وروى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).
وروى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إِنَّ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٣).

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جمع النَّاسَ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٤).

وثبت عنه في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي».

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(٥).

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٨).

(٣) «سنن أبي داود» (١٥١٦)، و«جامع الترمذي» (٣٤٣٤)، وصححه الألباني رحمته الله في «الصحيحة» (٥٥٦).

(٤) النسائي في «الكبرى» (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلم من حديث الأغر (٢٠٧٦/٤) بلفظ مقارب.

(٥) «صحيح البخاري» (٦٣٩٨)، «صحيح مسلم» (٢٧١٩).

وثبت في الاستغفار صيغ كثيرة، وكان كثير الاستغفار -صلوات الله وسلامه عليه-، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ»^(١).

هذا مع أنه ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١-٢].

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى قام حتى تنفطر رجلاه، فقلت له: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢).
وثمار الاستغفار وبركاته على أهله لا تُعدُّ ولا تُحصى في تميم أعمالهم وجبر تقصيرهم، ورفع مقامهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، من العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإن العابد لله والعارف بالله في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل لحظة يزداد علماً بالله وبصيرة في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله.

ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقها، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطر إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد، لما فيه من المصالح وجلب الخيرات

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٢٨٨)، و«صحيح ابن حبان» (٩٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠).

ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية»^(١). اهـ

وقد أعد الله في الدنيا والآخرة للمستغفرين من عظيم أجوره وكريم مواهبه وجزيل عطايه ما لا يمكن عدُّه والإحاطة به.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

روى ابن ماجه في «سننه» عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»^(٢).

نسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا من عباده التائبين الأوَّابين المستغفرين وأن يهدينا سواء السبيل.

وختاماً أسأل الله العليّ القدير أن يوفق المسلمين لحسن الإفادة من حجّهم إلى بيته العتيق، وأن يتقبل عملهم بقبول حسن، وأن يغفر لنا أجمعين، وأن يجعلنا من عباده المتّقين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وصلّى الله وسلّم على نبينا وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/٦٩٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٨١٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٩٣٠).

خطب ومواعظ
من حجة الوداع

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن خطب النبي ﷺ ومواعظه في حجته التي ودّع فيها المسلمين ذات شأن عظيم ومكانة سامية قرّر فيها -عليه الصلاة والسلام- قواعد الإسلام ومجامع الخير ومكارم الأخلاق، بكلمات بالغات وعظات نافعات، ممن أوتي جوامع الكلم وبدائع الحكم وكمال النصح وحسن البيان وجزالة الألفاظ وفصاحة القول، مع رحمة بالغة وشفقة عظيمة وحرص على نفع العباد وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحَتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿[الطلاق: ١٠-١١].

ولما كان الحج خير مقام لنصح العباد وتعليم الخير، إذ فيه يجتمع المسلمون من أقاصي الدنيا، وأنحاء المعمورة ملبين نداء الله، قاصدين بيته الحرام، راجين رحمته، خائفين من عذابه، فإن خير هدية تقدم لهم وأتم فائدة يظفرون بها أن يقفوا على خطب نبيهم -عليه الصلاة والسلام- ومواعظه في هذه المشاعر المباركة في حجة الوداع.

فهو الناصح الأمين، والمبلغ المشفق، والمربي الحكيم، وهو أنصح الناس للناس، بل هو قدوة الناصحين، وأسوة عباد الله أجمعين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي هذا الكتيب جمع لطائفة نافعة وجملة مباركة ونخبة طيبة من خطب النبي ﷺ ومواعظه في حجة الوداع، مع شيء من البيان لدلالاتها والتوضيح لمراميها وغايتها، مما أرجو أن يكون زاداً للوعاظ، وذخيرة للمذكرين، وبلغة للناصحين، مع الاعتراف بالقصور والتقصير.

وقد جعلتها في ثلاثة عشر درساً متناسبة في أحجامها، ليتسنى بيسر إلقاؤها على الحجاج أيام الحج على شكل دروس يومية.

وأسأل الله الكريم أن ينفع به، وأن يجعل فيه البركة، وأن يكتب له القبول، فالتوفيق بيده وحده لا رب سواه، ولا إله إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

(١)
مكانة خطبه ﷺ في حجة الوداع

إنَّ أحسن الخطب وأوفاهها بياناً وأتمها نصحاً خطبُ نبينا الكريم ﷺ، فقد جمع الله له في خطبه المنيفة جمال البيان وحسن الإفهام وقلة ألفاظ الكلام، بل ما سمع قط كلاماً أحد من البشر أعم نفعاً، ولا أفصح معنى، ولا أصدق لفظاً، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أوفى نصحاً من كلامه الشريف ﷺ.

وقد آتاه الله جوامع الكلم وخصه ببدائع الحكم، كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بعثت بجوامع الكلم»^(١).

قال الزهري رحمه الله: «جوامع الكلم - فيما بلغنا - أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك». ومن يتأمل خطبه - صلوات الله وسلامه عليه - يجد فيها الوفاء والنصح والبيان، وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم، إلا أنها في الجملة كان مدارها على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام وذكر الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٧٧)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣).

والحج مناسبة كريمة وفرصة ثمينة للنصح والتوجيه والوعظ والتنبيه والتعليم والإرشاد، إذ القلوب فيه مقبلة والنفوس مطمئنة والرغبة في الخير شديدة، فحريٌّ بالدعاة إلى الله تعالى أن تتصافر جهودهم وتتوافر هممهم في هذا الموسم المبارك نصحاء وتعليمًا وإرشادًا وتوجيهًا مقتفين آثار نبيهم الكريم مهتدين بهديه القويم.

وأن يكون مرتكزُ كلامهم ما دعا إليه ومحورُ نصيحهم وبيانهم ما أرشد إليه، إذ هو - عليه الصلاة والسلام - أنصحُ الناس للناس، بل هو قدوة الناصحين وإمام المرشدين ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد كان لخطب النبي ﷺ في حجة الوداع على وجه الخصوص شأن عظيم؛ إذ هي وصية مودع، والمودع يستقصي ما لا يستقصي غيره في القول والفعل، وقد عرّض في خطبته في حجة الوداع بذلك فقال: «فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»^(١).

وظفق يودّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في شأن هذه الخطبة: «فوالذي نفسي بيده إنها لو صيته ﷺ إلى أمته». رواه البخاري^(٢).

ويدل لأهمية هذه الخطبة وعظيم شأنها أمورٌ عديدة منها:

أولاً: أن النبي ﷺ ودع الناس على إثرها فهي وصية مودع كما سبق إيضاح ذلك.

(١) «صحيح مسلم» (١٢٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٣٩).

ثانياً: أن النبي ﷺ استنصت الناس؛ أي: طلب منهم أن ينصتوا، ففي «الصحيحين» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: «استنصت الناس»^(١).

مما يدل على أهمية الأمر، حيث إن الخطبة لما كانت مشتملة على صلاح الناس وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ناسب أن يأمرهم بالإنصات الذي يؤثر فيهم العلم والانتفاع ومن ثم العمل والارتقاء. وقد نقل عن سفيان الثوري وغيره أنه قال: «أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر».

ثالثاً: أن النبي ﷺ كان في خطبته تلك يتناول من أجل إسماع الناس. ففي «المسند» عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في حجة الوداع وهو على الجدعاء واضع رجله في غراز الرحل يتناول يقول: «ألا تسمعون»^(٢).

رابعاً: أن الله ﷻ فتح أسماع الناس في ذلك اليوم فكانوا يسمعون كلامه ﷻ وهم في منازلهم.

ففي سنن النسائي عن عبد الرحمن بن معاذ رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ بمنى ففتح الله أسماعنا، حتى إن كنا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا»^(٣).

خامساً: أنه ﷺ اتخذ من يبلغ عنه، ففي سنن أبي داود عن رافع بن عمرو

(١) «صحيح البخاري» (١٢١)، و«صحيح مسلم» (٦٥).

(٢) «مسند أحمد» (٥ / ٢٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيح» (٨٦٧).

(٣) «سنن النسائي» (٢٩٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢ / ٣٤٠).

المزني قال: «رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء، وعليّ ﷺ يعبر عنه، والناس بين قاعد وقائم»^(١).

وقوله: «وعليّ ﷺ يعبر عنه»؛ من التعبير؛ أي: يبلغ حديثه مَنْ هو بعيدٌ من النبي ﷺ.

سادساً: قوله ﷺ في الخطبة: «ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد»^(٢)، وتكراره لذلك.

سابعاً: أمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب، ففي حديث أبي بكرة ﷺ في الصحيحين قال -عليه الصلاة والسلام-: «فليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع»^(٣).

ثامناً: استعماله ﷺ في خطبته أسلوب الحض والتنبيه وشدّ الانتباه «ألا هل بلغت؟»، «ألا ليبلغ الشاهد الغائب»، «ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». وتكرر مثل هذا في مواضع من خطبته.

وكذلك أساليب التوكيد كقوله: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»، وفي هذا ما فيه من الاهتمام وتقوية الكلام وتثبيته في أذهان سامعيه.

تاسعاً: التأمل في مضامين هذه الخطبة العظيمة ودلالاتها المباركة حيث قرر فيها -صلوات الله وسلامه عليه- قواعد الملة الحنيفية، وهدم فيها قواعد

(١) «سنن أبي داود» (١٩٥٦)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٥٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها إلى غير ذلك من المضامين العظيمة التي اشتملت عليها خطبته، مما سنقف على جملته من خلال هذه الرسالة بإذن الله وَجَلَّ.

فكل ذلك يدلُّ دلالة واضحة على أهمية شأن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع وأهمية العناية بها، وأن الحاجة ماسة إلى معرفتها في حق كل مسلم صغير أو كبير ذكر أو أنثى.

رزقنا الله البصيرة بسنته والاهتداء بهديه.



(٢)

خطبة يوم عرفة

إن من خطب النبي ﷺ في الحج خطبته يوم عرفة، وذلك فيما رواه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه في حديثه الطويل الذي وصف فيه حجة النبي ﷺ من خروجه من المدينة إلى أن رجع إليها.

وهو حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد، وهو مخرج في صحيح الإمام مسلم رحمته الله ^(١).

قال جابر رضي الله عنه في سياق هذا الحديث: حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة.

وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مُسْتَرْضِعاً في بني سعد فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوعة، وأول رباً أضع رباناً، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن

(١) برقم (١٢١٨).

بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح.

ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد». ثلاث مرات، ثم أذن، ثم أقام، فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر. وهي خطبة عظيمة تضمنت أصولاً عظيمة، وقواعد جليلة، وآداباً كريمة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي وصف هذه الخطبة وبيان مضامينها إجمالاً: «فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض.

ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهن والذي عليهن، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف، ولم يقدر ذلك بتقدير.

وأباح للأزواج ضربهن إذا أدخلن إلى بيوتهن من يكرهه أزواجهن. وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا

معتصمين به.

ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه، واستنطقهم: بماذا يقولون وبماذا يشهدون، فقالوا: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت»، فرفع أصبعه إلى السماء واستشهد الله

عليهم ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.
وقد تضمنت هذه الخطبة جملاً مهمة من أمور الدين وآدابه، وهي كما يلي
-على ضوء ترتيبها في الحديث:-

الأولى: تحريم دماء المسلمين وأموالهم، وأكد ذلك -عليه الصلاة والسلام- تأكيداً بالغاً: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». وكلُّهم يدرك حرمة بلد الله الحرام، وتَضَاعَفَ هذه الحرمة في اليوم الحرام وفي الشهر الحرام.

فحرمة دم المسلم وماله شديدة كحرمة بلد الله الحرام في اليوم الحرام وفي الشهر الحرام، فما أعظمها حرمة.

الثانية: وَضِعُ كُلِّ شَيْءٍ من أمر الجاهلية وإبطاله: «ألا كُلُّ شَيْءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسْتَرْضِعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوعة، وأول رباً أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوعة كُله».

ففي هذه الجملة إبطالُ أفعال الجاهلية وبيعها التي لم يتصل بها قبض، وأنه لا قصاص في قتلها، وقوله: «تحت قدمي موضوعة»؛ إشارة إلى إبطاله، وقوله في الربا إنه موضوعة كُله، المراد بالوضع الرد والإبطال.

الثالثة: الوصية بالنساء والحثُّ على الإحسان إليهن: «فاتقوا الله في النساء

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٣٣).

فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وهذه الجملة فيها مراعاة حق النساء، والوصية بهن ومعاشرتهن بالمعروف، وقد جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرة في الوصية بالنساء وبيان حقوقهن والتحذير من التقصير في ذلك.

الرابعة: الوصية بكتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله».

والقرآن كتاب هداية، جعله الله مرشداً للعباد إلى كل طريق نافع وسبيل قويم، يفرقون به بين الحق والباطل والهدى والضلال، والخير والشر، فمن تمسك به هُدي، ومن اعتصم به لم يضل، ومن اتبعه لا يشقى. وإنما اقتصر على الكتاب لأنه مشتمل على العمل بالسنة، فمن لم يعمل بالسنة لم يعمل بالكتاب، وكذلك في قوله: «وأنتم تسألون عني»؛ دلالة على العمل بالسنة.

الخامسة: إخبارهم بأنهم مسئولون عنه ﷺ واستنطاقهم بماذا يجيبون: «وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد اللهم اشهد». ثلاث مرات.

وقوله: «وأنتم تسألون عني»؛ أي: عن تبليغي للرسالة، وقوله: «فما أنتم قائلون؟»؛ أي: في حقي.

وقولهم: «قد بلغت»؛ أي: الرسالة، «وأديت»؛ أي: الأمانة، «ونصحت»؛
أي: الأمة، وقوله: «اللهم اشهد»؛ أي: على عبادك بأنهم قد أقرؤا بأني قد بلغت،
وكفى بك شهيداً.



(٣)

إبطال أمور الجاهلية

تقدم ذكرُ ألفاظ خطبة الوداع، تلك الخطبة العظيمة التي ألقاها النبي الكريم والناصح الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - على مسامع الصحابة الكرام ﷺ في يوم عرفة المبارك.

وتقدم أيضاً الإشارةُ إلى مكانة هذه الخطبة وأهميتها، وبيان مضامينها إجمالاً، وكان مما قرر فيها ﷺ وَضَعُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الضَّلَالِ والانحراف والخروج عن الملة الحنيفية السمحة.

يقول ﷺ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ، وَدَمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنْ أَوَّلُ دَمٍ أُضِعَ مِنْ دَمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مَسْتَرَضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلْتَهُ هَذِيلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبًّا أُضِعَ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(١).

وهذا فيه بيان للحال البئيسة، والفساد العريض الذي كان عليه الناس قبل الإسلام في عباداتهم وتعاملاتهم؛ دماءٌ تراق، وأموالٌ تنتهب، وأعراضٌ تنتهك، حيث بلغ فيهم الجهل مبلغه والضلال غايته، فنالوا بذلك مقت الله ﷻ وسخطه.

(١) قطعة من حديث جابر الطويل، وهو في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

روى مسلم في «صحيحه» عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

فانظر إلى هذه الحال التي التبس فيها الدين على أهل الأرض، وخيم الجهل والضلال، ونزعت الرحمة، وشاع الظلم والعدوان، حتى جاء الله بالإسلام لينقذ البشرية وليشيع الخير ويشع الضياء.

نعم، جاء الإسلام بالعلم والنور، والخير والهداية، والصلاح والرفعة، وهدم سفة الجاهلية وغيها، وضلالها وانحرافها، وظلمها وظلامها، فخرج الناس بدعوته وضيائه من الكفر إلى الإيمان، ومن الغي إلى الرشد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

لقد وافت رسالته ﷺ أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عبادة أوثان، وعبادة نيران، وعبادة كواكب، ومغضوب عليهم قد باءوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف رباً يعبد، ولا بماذا يعبد. والناس يأكل بعضهم بعضاً، من استحسن شيئاً دعا إليه، وقتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة.

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

فَأَغَاثَ اللَّهُ بِهِ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَكَشَفَ بِهِ تِلْكَ الظُّلُمَ، وَأَحْيَا الْخَلِيقَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَهَدَىٰ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ، وَكَثَّرَ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ، وَأَعَزَّ بِهِ بَعْدَ الدُّلَّةِ، وَأَغْنَىٰ بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عَمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا. وَعَرَّفَ ﷺ النَّاسَ رَبَّهُمْ وَمَعْبُودَهُمْ غَايَةَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَنَالَهُ قَوَاهِمُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَانْجَابَتْ عَنْهُمْ سَحَابُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ، وَعَرَّفَهُمُ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانِهِ وَدَارِ كَرَامَتِهِ فَلَمْ يَدَعْ حَسَنًا إِلَّا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَلَا قَبِيحًا إِلَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ. وَعَرَّفَهُمْ حَالَهُمْ بَعْدَ الْقُدُومِ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَتَمَّ تَعْرِيفٍ، فَهَدَىٰ اللَّهُ بِهِ الْقُلُوبَ مِنَ ضَلَالِهَا، وَشَفَاَهَا مِنْ أَسْقَامِهَا، وَأَغَاثَهَا مِنْ جَهْلِهَا^(١). فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِيَعِثَّتِهِ حَيْثُ انْدَحَرَتِ الْجَاهِلِيَّةُ، وَحُلَّ النُّورُ، وَانْقَشَعَ الظُّلَامُ، وَشَعَّ الضِّيَاءُ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ عِزَّةِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَةِ، وَرَفَعَتِهِ وَشُمُوحِهِ، فِي مَكَّةَ حَيْثُ كَانَتْ تَخِيْمُ الْجَاهِلِيَّةُ وَيَهِيْمُنُ الضَّلَالُ يَضَعُ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ ضَلَالٍ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، لِيَعْلُو نُورُ الْإِسْلَامِ وَضِيَاءُ الدِّينِ، وَلِتَنْدَحِرَ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ وَالضَّلَالَةُ الْعَمِيَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(١) ينظر: «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص ١٩٢-١٩٥).

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿[البقرة: ١٥١-١٥٢].

فلله الحمد الذي أنقذنا معاشر المسلمين ببعثة محمد ﷺ من تلك الظلمات والجهالات، وفتح لنا به باب الهدى والخضوع لرب الأرض والسموات، وأغنانا بشريعته التي تدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة.

وتتضمن الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، فله المنة والفضل على ما أنعم به علينا، وإليه الرجاء والرغبة أن يوزعنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغفرة والرحمة.

والواجب على كل مسلم أن يعرف لهذه النعمة قدرها، وأن يحفظ لها مكانتها، وأن يحافظ عليها، صلاحاً في نفسه، وإصلاحاً في مجتمعه، سائراً على سنن الإسلام المستقيم وصراطه القويم، حذراً غاية الحذر من أعمال الجاهلية وغيرها وسفورها وضلالها، لينال رضا الله ورحمته، وليسلم من سخطه سبحانه ومقتته.

وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه». رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه (١).

ولا تفوت الإشارة هنا إلى كتاب نافع ومؤلف قيم في هذا الباب العظيم، ألا وهو كتاب «المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية» للإمام

(١) برقم (٦٨٨٢).

المصلح، والعلامة المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ينبغي أن يفيد منه كل مسلم.

ولذا قال في مقدمته: «هذه أمور خالف فيها رسول الله ﷺ ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأُميين، مما لا غناء لمسلم عن معرفتها».

فجزاه الله خيرًا، ونفع بعلومه ونصحه، وأعاذنا سبل أهل الجاهلية ومسالك أهل الزيغ والضلال، إنَّه سبحانه خير مسئول.



(٤)

الوصية بالنساء

إن مما جاء في خطبة النبي ﷺ يومَ عرفة وصيته ﷺ بالنساء، ومراعاة حقوقهنَّ، والإحسانِ إليهن، ومعاشرتهنَّ بالمعروف، قال ﷺ: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١).

وهي وصية عظيمة بالمرأة، من تقوى الله ﷻ القيَّامُ بها ومراعاتها، لقوله: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله»؛ أي: أن لهن أماناً فلا يؤذين، فهنَّ آمناات عندكم بأمان الله.

وقوله: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله»؛ أي: إذنه لكم وشرعه وتحليله كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

فلتقر المرأة المسلمة عيناً بهذه الحفاوة والإكرام، والرعاية والإحسان، حيث خصَّها رسولُ الله ﷺ بالوصية بها خيراً في هذا المقام العظيم، وفي هذه الخطبة العظيمة خطبة الوداع.

(١) هو في «صحيح مسلم» (١٢١٨) بطوله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

كما أنه ﷺ خصها بالوصية بها في غير مقام، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^(١).

وهنا يجب أن تعي المرأة المسلمة أنها تعيش تحت ظلال الإسلام حياة عز وكرامة، وحشمة ونيل لحقوقها الشرعية التي أوجبها الله لها، خلافاً لما كانت تعيشه المرأة في الجاهلية.

ومن ينظر لحال المرأة المسلمة في ظل تعاليم الإسلام الكريمة، وتوجيهاته العظيمة، يجد أن الإسلام منقذ للمرأة من براثن الرذيلة، ومخلص لها من حماة الفساد؛ إذ هي في كنفه تعيش حياة الطهر والعفاف، والستر والحياء، منيعة الجانب، رفيعة القدر، ومن يقارن بين حالها في ظل الإسلام وأحوالها في الجاهلية يجد الفرق الشاسع، والبون العظيم في نكاحها وأسلوب التعامل معها.

روى البخاري في «صحيحه»^(٢) عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته: «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيُصَدِّقها ثم يَنكِحها.

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه؛ فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٣١)، و«صحيح مسلم» (١٤٦٨).

(٢) رقم (٥١٢٧).

ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر، يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر ليل بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحببت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل.

والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمتنع من جاءها وهنّ البغايا، كنّ ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جُمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطته به، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم». انتهى خبر عائشة رضي الله عنها.

وقد كانت المرأة في الجاهلية تشتري وتباع كالبهيمة والمتاع، وكانت تُكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تُورث ولا ترث وكانت تُملك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها إلى غير ذلك من أنواع الظلم والاضطهاد الذي كانت تقاسيه المرأة وتتجرع مرارته فأُنقذها الله بالإسلام. إن الدين الإسلامي الحنيف بتوجيهاته السديدة، وإرشاداته الحكيمة صان المرأة المسلمة وحفظ لها شرفها وكرامتها، وتكفل بتحقيق عزها وسعادتها، وهياً لها أسباب العيش الهنيء، بعيداً عن مواطن الريب والفتن، والشر والفساد، وتُعَدُّ توجيهات الإسلام وإرشاداته صماماً أماناً للمرأة، بل للمجتمع بأسره من أن تحل

به الشرور والفتن، وأن تنزل به البلايا والمحن.

وإذا ترحلت ضوابط الإسلام المتعلقة بالمرأة عن المجتمع حل به الدمار، وتوالت عليه الشرور والأخطار، والتاريخ من أكبر الشواهد على ذلك، إذ مَنْ يتأمل التاريخ على طول مداه يجد أن من أكبر أسباب انهيار الحضارات وتفكُّك المجتمعات، وتحلل الأخلاق، وفُشو الرذائل، وفساد القيم، وانتشار الجرائم هو تحلل المرأة من تعاليم الدين القويمة، وإرشاداته الحكيمة، وتوجيهاته المباركة. ومن الواجب على المرأة المسلمة أن تتلقى كلَّ تعاليم الإسلام بانسراح صدر، وطيب قلب، وحسن تطبيق وعمل، لتحيا حياة هنيئة وتفوز برضا ربها وسعادة الدنيا والآخرة، ومن الواجب على أولياء أمور النساء حسنُ رعايتهن وتأديبهن بآداب الإسلام، وحفظ حقوقهن، وإكرامهن والإحسان إليهن طاعةً لله سبحانه، وطلباً لثوابه، وتحقيقاً لتقواه، والله وحده المستعان لا ربَّ سواه، ولا حول ولا قوة إلا به.



(٥)

تحريم الدماء والأموال والأعراض

لقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن النبي ﷺ خطب الناس يوم النحر وكان أعظم ما أكد عليه تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وقد جاء في هذا عدة أحاديث عن غير واحد من الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

منها حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس، أيُّ يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام، قال: «فأيُّ بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام.

قال: «فأيُّ شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

فأعادها مرارًا ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض». رواه البخاري ^(١).

وحديث أبي بكرة نفع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه

(١) رقم (١٧٣٩).

سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يومُ النحر؟» قلنا: بلى. قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس ذو الحجة؟» قلنا: بلى.

قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى.

قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم.

قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهدُ الغائبَ، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض». متفق عليه^(١).

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ بمنى: «أتدرون أي يوم هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «فإن هذا يوم حرام، أفْتَدْرُونَ أيَّ بلد هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «بلد حرام، أفْتَدْرُونَ أيَّ شهر هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهر حرام»، قال: «فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا». رواه البخاري^(٢).

وحديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال له في حجة الوداع: «استنصت الناس».

فقال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٣). والأحاديث

(١) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

(٢) البخاري (١٧٤٢).

(٣) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

في هذا الباب كثيرة.

وقد دلت هذه الخطبة العظيمة، والكلمات القوية، على عظم حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وعصمتها، وأنه لا يحل الاعتداء عليها بأي نوع من الاعتداء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله، قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»^(١).

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»^(٢).

وقال ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله»^(٣).

وقال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه أراد قتل صاحبه»^(٤).
وقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٥).
وقال: «إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما»^(٦).

(١) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري (٣٩١).

(٤) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) رواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وهذه الأحاديث كلها في الصحيح^(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وقد أكد النبي ﷺ حرمة هذه الثلاث، الدماء، والأموال، والأعراض تأكيداً بالغاً، وغلظ شأنها تغليظاً عظيماً، وجعل حرمتها كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام.

وكرر ذلك على أسماعهم اهتماماً بالمقام وتعظيماً للأمر، وأمر شاهدهم أن يبلغ غائبهم بذلك، وقد استدعى -عليه الصلاة والسلام- اهتمامهم، وشد أذهانهم بسؤالهم عن اليوم الذي هم فيه، وعن الشهر وعن البلد، وذكرهم بحرمتها، وحُرْمَتُهَا معلومةٌ عندهم متقرّرةٌ في نفوسهم، وهو -عليه الصلاة والسلام- إنما ذكر ذلك توطئةً لبيان حرمة دم المسلم وماله وعرضه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما شبه حرمة الدم والعرض والمال بحرمة اليوم والشهر والبلد لأن المخاطبين بذلك كانوا لا يرون تلك الأشياء، ولا يرون هتك حرمتها، ويعيرون على من فعل ذلك أشد العيب، وإنما قدم السؤال عنها تذكّاراً لحرمتها، وتقريراً لما ثبت في نفوسهم ليبني عليه ما أراد تقريره على سبيل التأكيد»^(٢). اهـ

ثم إن النبي ﷺ حذر تحذيراً آخر في هذه الخطبة يتعلق بالدماء حرمتها فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٣).

وهذا تحذير بالغ، «فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً،

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٨٣).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٥٧٦).

(٣) سبق تخريجه.

وسمى هذا الفعل كفرًا^(١)، وليس هذا بالكفر الناقل من ملة الإسلام، بل هو كفر دون كفر، وهو يدل على أن هذا العمل من شعب الكفر الذميمة وخصاله المشينة، وقد جاء الإسلام بالتحذير منها والنهي عنها، تحقيقًا للوئام، وجمعًا للقلوب، وحفظًا للدماء أن تزهق بغير حق وأن تراق بلا موجب، وفي معنى هذا الحديث قول النبي ﷺ: «سبابُ المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر»^(٢).

فالواجب على كل مسلم أن يكون على حذر شديد من الوقوع في هذا الإثم المبين والذنب الوخيم ألا وهو الاعتداء على دماء المسلمين أو أموالهم أو أعراضهم.

وقد كتب رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما أن اكتب إليّ بالعلم كله، فكتب إليه: «إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل»^(٣).

فيا لها من نصيحة ما أبلغها، وعلمٍ نافع ما أجمعه، وبالله وحده التوفيق.



(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٢٢).

(٦)
خمسُ خصالٍ موجبةٌ لدخول الجنة

ومما ورد في ذكر خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع حديثُ أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: «اتقوا الله ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة مالكم، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»^(١).

رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أحمد والحاكم بلفظ: «اعبدوا ربكم»^(٢).

وهي وصيةٌ جامعةٌ في ذكر موجبات دخول الجنة، وأسباب الظفر بنعيمها، والفوز بخيراتها وملذاتها، وهي الدار التي أعدها الله لعباده المطيعين وأوليائه الصالحين، وجعل فيها من النعيم الكريم والثواب العظيم، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

(١) «جامع الترمذي» (٦١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١/٣٣٧).

(٢) «مسند أحمد» (٥/٢٥١)، و«مستدرک الحاكم» (١/٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٨٦٧).

وفي قوله ﷺ في هذا الحديث: «تدخلوا جنة ربكم»، إضافة الجنة إلى الرب سبحانه، وهذا فيه تشريف لها، وتعلية لشأنها، ورفع لقدرها. وقد ذكر النبي ﷺ خمسة أسباب عظيمة لدخول الجنة ونيل ما فيها من ثواب ونعيم.

الأول: قوله: «اتقوا ربكم»؛ أي: بفعل أوامره، والبعد عن نواهيه، فأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية تقيه منه، وتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه.

كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللهُ: «تقوى الله عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عقاب الله»^(١).

فتقوى الله وَجَلَّ جَدُّ واجتهاد، ونصح للنفس بطاعة الله والتقرب إليه بما يرضيه، ولا سيما فعل الفرائض والواجبات، والبعد عن المعاصي والمنكرات.

ويدخل في تقوى الله الإيمان بأصول هذا الدين وعقائده القويمية، والقيام بشرائع الإسلام وعبادته، فكل ذلك من خصال التقوى ومن أوصاف المتقين، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٣٤٣)، وهناد بن السري في «الزهد» (٥٣٢)، وصححه الألباني في «تخريج كتاب الإيمان» لابن أبي شيبه (ص ٣٩).

الثاني: قوله: «وصلُّوا خمسكم»؛ أي: حافظوا على الصلوات الخمس المفروضة، فغن المحافظة عليها من موجبات دخول الجنة، وإضاعتها من موجبات دخول النار، وهي عماد الدين وأكد أركانه بعد الشهادتين، وهي صلة بين العبد وربِّه، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإذا صلحت صلح سائر عمله، وإذا فسدت فسد سائر عمله، وهي الفارقة بين المسلم والكافر، فإقامتها إيمان، وإضاعتها كفر، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا حظُّ في الإسلام لمن ضيع الصلاة.

ففي «المسند» وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»^(١).

الثالث: قوله: «صوموا شهركم»؛ أي: شهر رمضان المبارك بالامتناع في نهاره عن الطعام والشراب وسائر المفطرات، وهو شهر واحد يمر كل عام كتب الله على العباد صيامه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴿[البقرة: ١٨٣-١٨٤].

وهي قليلة وصيامها في غاية اليسر والسهولة، يجتمع فيه المسلمون كلهم على أداء هذه الطاعة، فيتركون فيه شهواتهم الأصلية من طعام وشراب ونكاح، ويعوضهم الله عن ذلك من فضله وإحسانه تتميم دينهم، وزيادة كمالهم، ونيل

(١) «مسند أحمد» (١٦٩/٢)، و«صحيح ابن حبان» (١٤٦٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٢/١): ورجال أحمد ثقات، وحسن إسناده الشيخ عبد العزيز بن باز في «مجموع فتاويه» (٢٧٨/١٠).

أجره العظيم وبره العميم، وفي الجنة باب يقال له الريان لا يدخل منه إلا الصائمون.
 الرابع: قوله: «وَأَدُّوا زَكَاةَ مَالِكُمْ»؛ أي: التي فرض الله عليكم، وجعلها حقاً في المال، وهي لا تجب على فقير ليس عنده نصاب زكوي، وإنما تجب على الأغنياء تمييزاً لدينهم وإسلامهم، وتنمية لأموالهم وأخلاقهم، ودفعاً للآفات عنهم وعن أموالهم، وتطهيراً لهم من السيئات ومواساةً لمحاويجهم وفقرائهم، مما يدل على كمال هذه العبادة وعظم نفعها.

الخامس: قوله: «وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ» وفي هذا الأمر بالسمع والطاعة لولاية أمر المسلمين في غير معصية الله والنصح لهم، وعدم الخروج عليهم، ونزع اليد من طاعتهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن تأكيد النبي ﷺ على هذا الأمر في حجة الوداع ما رواه مسلم في «صحيحه»^(١) عن يحيى بن حصين قال: سمعت جدتي تحدث أنها سمعت النبي ﷺ يخطب في حجة الوداع وهو يقول: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا».

فالواجب اتخاذ ذلك ديناً وقربة يُتقرب بها إلى الله ﷻ، فالذي أمر بطاعة ولاية الأمر هو الذي أمر بالصلاة والصيام والزكاة، وكل ذلك من موجبات دخول الجنة ونيل رضا الله ﷻ.

وقد أضيفت هذه الخصال الخمس في الحديث إلى المؤمنين لأنها من خصوصيتهم وموجبات كمالهم.

قال الطيبي رحمه الله: «حكمة إضافة هذا وما بعده إليهم إعلامهم بأن ذوات

(١) برقم (١٨٣٨).

هذه الأعمال بكيفيتها المخصصة من خصوصياتهم التي امتازوا بها عن سائر الأمم، وحثُّهم على المبادرة للامتنال بتذكيرهم بما خوطبوا به، وتذكيرهم بأن هذه الإضافة العملية يقابلها إضافة فضلية هي أعلى منها وأتم، وهي الجنة المضافة إلى وصف الربوبية المشعر بمزيد تربيتهم وتربية نعيمهم بما فارقوا به سائر الأمم»^(١). اهـ

اللهم إنا نسألك التوفيق لدخول الجنة دار النعيم المقيم، والإعانة على القيام بموجبات دخولها إنك سميع مجيب.



(١) «تحفة الأحوذى» (٣/ ٢٣٨).

(٧)

بيان من المؤمن، ومن المسلم، ومن المجاهد، ومن المهاجر

روى الإمام أحمد في مسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»^(١).

فهذا الحديث الذي هو من جملة وصايا النبي ﷺ وتعليمه لأمته في حجة الوداع فيه بيان لكمال مسميات هذه الأسماء الجليلة: الإيمان والإسلام والجهاد والهجرة، وبيان للمستحقين لهذه الأسماء على الحقيقة الواجبة لهم، والتي يترتب عليها السعادة التامة في الدنيا والآخرة، وذكر لحدودها بكلام جامع شامل.

١ - فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا تمكن في القلب، وامتأل القلب به أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه وأمنوه على دمائهم وأموالهم ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات

(١) «مسند أحمد» (٢٣٩٥٨)، وصححه الألباني رحمته الله في «الصحيحة» (٥٤٩).

الإيمان كما قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»^(١).

٢- والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وذلك أن الإسلام الحقيقي هو الاستسلام لله وتكميل عبوديته، والقيام بحقوق المسلمين، ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده.

فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه المسلمون، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ ومن بسط في المسلمين يده ولسانه أذى وعدواناً أين هو من تحقيق الإسلام؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفي هذا دلالة على أن المؤمن أعلى رتبة من المسلم، فإن كان مأموناً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده، ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه، وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً عندهم، فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة أو رهبة لا لإيمان في قلبه.

ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة أعلى من تلك.

٣- والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، وذلك أن النفس ميالة إلى الكسل عن الخيرات، أمارة بالسوء، سريعة التأثير عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب.

(١) رواه أحمد (١٣٥/٣)، وابن حبان (١٩٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني لغيره في «صحيح موارد الظمان» (٤٢).

وهذه هي الطاعات، امثال المأمور واجتناب المحذور، والصبر على المقدور، فالمجاهد حقيقة من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيانات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويحتمل ذلك كله لله، ذكر هذه المراتب العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ^(١).

وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»^(٢).

وإذا قصر المسلمون في جهاد أنفسهم ضعفوا عن جهاد أعدائهم، فيحصل بذلك ظهور لأعدائهم عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وحيث ظهر الكفار فإنما ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله»^(٣). اهـ

(١) «زاد المعاد» (٦/٣).

(٢) رواه ابن النجار عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (١٠٩٩).

(٣) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٦/٤٥٠).

٤- والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، وهذه الهجرة فرض عين على كل مسلم لا تسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله، فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات والإقدام على المعاصي والذنوب، وأوجب عليهم الإقبال على طاعته واتباع رسوله ﷺ.

وهي هجرة تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غير الله إلى عبوديته، ومن خوف غير الله ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غير الله وسؤاله والخضوع له والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. ومن غشيان الذنوب وارتكابها إلى التوبة منها، والإقبال على الله وحده خوفاً وطمعاً وخشوعاً وتذلاً.

وقد ثبت في «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ قال: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(١).

والله ﷻ نهى عن الشرك، وعن اتباع الأهواء، وعن فعل المعاصي والذنوب، فالمهاجر حقاً من هجر هذه الأمور وأقبل على الله وحده مخلصاً، ولنبه ﷺ متابعاً، وللذنوب والمعاصي مجانباً ومباعداً.

وعلى كل؛ فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله: من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دماءهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه، والله وحده الموفق^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (١٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «بهجة قلوب الأبرار» لابن سعدي (١٧-١٩).

(٨)

الدعوة لحملة السنة بالنضرة

ومن خطب النبي ﷺ في حجة الوداع خطبته بالخيف من منى كما في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من ورائه»^(١). رواه أحمد وابن ماجه والدارمي والحاكم وغيرهم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل له، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم»^(٢). رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وابن حبان وغيرهم.

(١) رواه أحمد (١٦٧٣٨)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، والدارمي (٢٢٨)، والحاكم (١/٨٦-٨٧)، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

(٢) رواه أحمد (٤٣٧/١)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وابن حبان (٦٦)، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح سنن الترمذي» (٦١/٣).

ورواه أبو نعيم في كتابه «أخبار أصبهان» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله ﷺ في المسجد مسجد الخيف»، فقال: وذكر الحديث ^(١).
وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغفل عليهن قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم.

وقال: من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فزق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له». رواه أحمد والدارمي وابن حبان وغيرهم ^(٢).

وقد روى هذا الحديث جمع من الصحابة بلغت عدتهم أكثر من عشرين صحابياً منهم غير من تقدم: معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، والنعمان بن بشير، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله رضي الله عنه.

ولذا عدّه غير واحد من أهل العلم في جملة الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ، ولعل من أسباب تواتره كون النبي ﷺ خطب به الناس، في مسجد الخيف من منى.

(١) «أخبار أصبهان» (٢/ ٩٠).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٨٣)، والدارمي (٢٢٩)، وابن حبان (٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (٦٣).

والخيف ما ارتفع عن مجرى السيل، وانحدر عن غلظ الجبل، ومسجد منى يسمى مسجد الخيف لأنه في سفح جبلها، وهو في زماننا هذا مسجد كبير واسع يتسع لآلاف المصلين مع كافة خدماته، قامت على بنائه والعناية به الدولة -وفقها الله وحرسها-، وتقام فيه أيام الحج دروس عديدة، كما خصص فيه أماكن متعددة لإجابة المستفتين وإرشاد السائلين.

وإنما خطب ﷺ الناس بمنى ليتلقى عنه الجمع الغفير الذي شهد حجته ﷺ تعاليم الدين، ويبثوا ما يسمعون في أقطار الأرض. والحديث بمجموع طرقه يشتمل على أربع جمل رئيسة: الجملة الأولى: هي المشتمة على الدعوة لسامعي الحديث ومبلغيه غيرهم.

الجملة الثانية: هي المتضمنة بيان الفائدة من تبليغ الحديث وهي استنباط ما فيه من الفقه.

الجملة الثالثة: المبدوءة بقوله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم...». الجملة الرابعة: المبدوءة بقوله ﷺ: «من كان همه الآخرة جمع الله شمله...».

وقد صدر ﷺ حديثه هذا بدعوة مباركة ميمونة، خص بها رسول الله ﷺ من سمع حديثه، ووعاه وبلغه كما سمعه، ولو لم يكن في فضل العلم وبيان شرفه إلا هذا الحديث لكفى به شرفاً، فإن هذه الدعوة النبوية الكريمة المباركة متضمنة لجمال الظاهر والباطن، فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان، وابتهاج الباطن به، وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه.

ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنصرة كما في قوله تعالى:
﴿فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

فالنصرة في وجوهم، والسرور في قلوبهم، ثم ما يتلقون من نعيم وثواب
على ذلك يظهر نصرة على وجوهم كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةً
النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

ولا ريب أن هذه الدعوة المباركة لمن حمل السنة وبلغها للأمة بالنصرة
تحمل البشارة لمن وقف نفسه، ووفر جهده لخدمة السنة وإبلاغها، وفي هذا حفز
للهمة وإذكاء للعزائم، وحمل للنفوس على الجد والمثابرة، والصبر والمصابرة،
وبذل الوسع في تحقيق ذلك.

وقد دل الحديث على أن للعلم الذي استحق أهله هذه البشارة أربع
مراتب:

أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه ووعاه بقلبه، أي: عقله واستقر في
قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عقله هو
بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرذم وتذهب.

والمرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

والمرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده، وهو بثه
في الأمة، فهو بمنزلة الكثر المدفون في الأرض الذي لا يُنفق منه وهو معرض
لذهابه، فإن العلم ما لم يُنفق منه ويُعلم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أنفق منه نما
وزكا على الإنفاق.

وإنما دعا ﷺ لسامع السنة ومبلغها بالنصرة جزاءً وفاقاً لما قام به من بثها،
وجعلها بذلك غضة طرية، وسعى في نصرة العلم وإحياء السنة فجازاه بالدعاء

بما يناسب حاله.

وقد جاء عن سفيان بن عيينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ إِلَّا وَفِي وَجْهِهِ نَضْرَةٌ»^(١).



(١) انظر: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (٢٨).

(٩)

ثلاث لا يغلُ عليهنَّ قلب المسلم

سبق ذكر خطبة النبي ﷺ في مسجد الخيف بمنى، وبيان اشتغالها على أربع جمل رئيسة مضى الحديث عن الجملة الأولى منها وهي دعوته ﷺ لمن سمع حديث النبي ووعاه وحفظه وبلغه كما سمعه.

أما الجملة الثانية: وهي المتضمنة لبيان الفائدة من تبليغ حديث النبي ﷺ وهي وصوله إلى من يكون أمكن في حفظه وفهمه، وذلك في قوله ﷺ: «فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وفي الرواية الأخرى قال: «رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

ومعنى ذلك: أنه قد يحفظ من لا يفهم، وقد يفهم وغيره أفهم منه، والذي حفظ ولم يفهم مأجور لحفظه السنة وتبليغها، والذي حفظ وفقه أكمل منه، فيكون مأجوراً لحفظه وتبليغه واستنباطه من الحديث ما أمكنه استنباطه فهو يبلغه لغيره، وقد يكون الذي بلغه إليه أفقه منه فيستنبط منه ما لم يفهمه الحامل.

وأما الجملة الثالثة: فهي قوله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».

وهو مشتمل على هذه الخصال العظيمة التي لا يغفل عليهن قلب المسلم، وقد ذكر -عليه الصلاة والسلام- هذه الخصال عقب دعوته لمن سمع السنة ووعاها، وحفظها وبلغها بالنضرة، وهو في غاية المناسبة.

وذلك أنه لما كان هذا الثواب العظيم لمن بلغ سنة رسول الله ﷺ يفتقر كسائر الأعمال إلى الإخلاص لله، وعقد النية على النصح للمسلمين ولزوم جماعتهم عقب ﷺ دعوته الميمونة المباركة لمبليغي سنته بما يدل على أهمية الإخلاص في الأعمال لله، والنصح للمسلمين، ولزوم جماعتهم بقوله: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم».

قال ذلك؛ لأن هذه الخصال الثلاث تستصلح بها القلوب، وتهذب بها النفوس، وباستشعارها وعقد القلب عليها يكون المسلم جديرًا بتحصيل الثواب الجزيل، والأجر العظيم المذكور في الحديث.

وفي قوله ﷺ في الحديث: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم». دلالة على أن قلب المسلم لا يحمل الغل ولا يبقى فيه الغش، إذا كان متصفًا بهذه الصفات الثلاثة المذكورة في الحديث؛ لأنها تنفي الغش وتبعده عن القلب.

فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه، ويخرجه ويزيله جملة، لأنه قد انصرف دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه وطلب ثوابه، فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية

والإهلاك، فقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٤) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ [ص: ٨٢-٨٣].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ [الحجر: ٣٩-٤٢].

وقوله ﷺ في الحديث: «والنصح لأئمة المسلمين»؛ هذا أيضاً منافٍ للغل والغش، فإن النصيحة لولاة الأمر لا تجامع الغل إذ هي ضده فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل، والنصح لأولي الأمر من المسلمين إنما يكون بالسمع والطاعة لهم في المنشط والمكروه أبراراً كانوا أو فجاراً، وإنما الطاعة في المعروف، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، وبارشادهم للخير وترغيبهم فيه، وتحذيرهم من الشر وتنفيرهم منه، والدعاء لهم بالصلاح والمعافة، وعدم الدعاء عليهم لمنافاة ذلك للنصيحة، لأن جماع النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان.

وقوله ﷺ في الحديث: «ولزوم جماعتهم»؛ وهذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوءه ما يسوءهم، ويسره ما يسرهم، مع الموافقة لهم في العقيدة والعمل، والحذر من الخروج عن زمرتهم؛ لئلا تتلقفه الشياطين التي تعمل في الإنسان أعظم من عمل الذئاب فيما يندُّ من الغنم.

وقوله ﷺ في الحديث: «فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»؛ هو من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، حيث شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوهم عليهم، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام - وهم

داخلوها- لما كانت سورًا وسياجًا عليهم أخبر ﷺ أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم. فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلمُّ شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته، وبذلك أيضًا يكون للمسلم الملازم لجماعة المسلمين نصيب من دعواتهم الطيبة التي تصدر من آحادهم شاملة لعمومهم. وأما الجملة الرابعة في الحديث: فهي قوله ﷺ: «من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كُتب له». وهذا كله راجع إلى الخصلة الأولى من الخصال الثلاث وهي إخلاص العمل لله، فمن أخلص نيته لله وأراد الآخرة يملأ الله قلبه بالغنى، ويبعد الفقر عنه، ويلم شعته، ويسوق إليه الدنيا من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، ومن لم يخلص عمله لله وكان همه الدنيا فإن الله يعاقبه في الدنيا بهذه العقوبات، فيسلب قلبه الغنى ويحول بينه وبين الراحة والطمأنينة فتستولي عليه الهموم، ويبدله بهذا الغنى الذي نزع من قلبه أن يجعل فقره بين عينيه فيكون دائمًا أمامه لا يغيب عنه، وأحاطت به النكبات من كل جانب^(١).



(١) ينظر: كتاب «دراسة حديث: نضر الله امرأً سمع مقالتي، رواية ودراية»، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر - حفظه الله -.

(١٠)

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

إن من المعاني العظيمة التي أكد عليها رسول الله ﷺ وقرّرها في حجة الوداع لزوم تقوى الله ﷻ، والحرص على نيل رفيع الرتب، وعالي الدرجات بتحقيقها لا بالفخر بالأنساب والأحساب، فالكلُّ بنو آدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله ﷻ.

روى الإمام أحمد في «مسنده»^(١) عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟» قالوا: بلغ رسول الله ﷺ.

فقرّر ﷺ في هذه الخطبة العظيمة والبيان البليغ أن التفاضل ونيل الفضل إنما هو بتقوى الله ﷻ لا بأي أمر آخر، كما قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) «المسند» (٢٣٤٨٩)، قال ابن تيمية في «الافتضاء» (٤١٢/١): بإسناد صحيح، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤٥٠/٦).

فأكرم الناس عند الله أتقاهم له، أي: أكثرهم محافظة على طاعته، وانكفافاً عن معصيته، إذ التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، والبعْدُ عن معصية الله على نور من الله خيفة عقاب الله.

وعلى قدر منازل الناس من التقوى تكون منازلهم عند الله، والله - جل وعلا - عليم خبير، يعلم من يقوم بتقواه ظاهراً وباطناً ممن لا يقوم، ويجازي كلًّا بما يستحق.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسفُ نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبيِّ الله ابنِ خليل الله».

قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(١).

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

وفي «المسند» للإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى»^(٣).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فالناس إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، والصور والأموال، والله عزَّ وجلَّ رتب الجزاء والثواب على تحقيق التقوى، والقيام بطاعته سبحانه، فبذلك تثقل الموازين وترتفع الدرجات.

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤) (٣٤).

(٣) «مسند أحمد» (١٥٨/٥)، وحسنه الألباني رحمته الله في «صحيح الجامع» (١٥٠٥).

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠١-١٠٣]﴾.

وفي الحديث قال ﷺ: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١)؛ ومعناه: أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ فمن بطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه فيبلغ به تلك الدرجات، فإن الله رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب.

وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٣) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ وَالْكَظِيمِ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣-١٣٤]﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّائِهِمْ يَوْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهًا أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٧-٦١]﴾^(٢).

فهذه الآيات ونظائرها كثير في القرآن تدل أن الفوز برضا الله، والسبق إلى المنازل العالية إنما هو بالأعمال الصالحات، والطاعات الزاكيات، والتقرب إلى الله بما يرضيه، وفعل طاعته وطاعة رسول الله ﷺ، لا أن يعول الإنسان على حسب أو نسب، أو مال أو جاه أو غير ذلك.

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٣٠٨/١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إذ الفضل الحقيقي هو اتباع ما بعث الله به محمداً ﷺ من الإيمان والعلم باطنًا وظاهرًا، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل، والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل: الإسلام والإيمان والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح، والإحسان ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربيًا أو عجميًا أو أسود أو أبيض ولا بكونه قرويًا أو بدويًا»^(١). اهـ

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسب أبا لهب

ويشهد لهذا كله ما في «الصحيحين» عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن آل أبي -يعني فلانًا- ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٢).

فأخبر ﷺ عن بطنٍ قريبي النسب أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياء، إنما وليُّه الله وصالحو المؤمنين من جميع الأصناف، وأن الولاية لا تنال بالنسب وإن قرب، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعملاً فهو أعظم ولاية له.

ونسأل الله الكريم أن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا من عباده المتقين.



(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٤١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٩٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٥).

(١١)

التحذير من كبائر الإثم

إن مما اعتنى النبي ﷺ ببيانه في حجة الوداع التحذير من الموبقات، والنهي عن كبائر الذنوب وعظائم الآثام ولا سيما الشرك بالله، وقتل الأنفس المعصومة، والزنا، والسرقه.

فعن سلمة بن قيس الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هن أربع: ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تنزوا، ولا تسرقوا»^(١). رواه أحمد والطبراني والحاكم وابن أبي عاصم في السنة بإسناد صحيح.

فحذر -عليه الصلاة والسلام- من هذه الكبائر العظيمة، والموبقات الوخيمة، ونهى عنها، وفي قوله: «ألا إنما هن أربع»؛ بيان لعظم خطر هؤلاء الأربع الموبقات، وأنهن أكبر الكبائر وأخطرها.

والذنوب منقسمة إلى كبائر وصغائر، والكبيرة هي كل ذنب ختم بلعنة أو

(١) رواه أحمد (٣٣٩/٤)، والطبراني (٦٣١٧)، والحاكم (٣٥١/٤)، وصححه الألباني رحمته الله في «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٧٥٩).

وانظر في «الصحيحين» حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في ذكر مبايعة النبي ﷺ أصحابه على البعد عن هذه الأربع. البخاري (١٨).

غضب أو نار، أو حدٌ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة بأن توعده فاعله بأنه لا يدخل الجنة، أو لا يشم ريحها، أو نفى عنه الإيمان، أو قيل فيه من فعله فليس منا وأن صاحبه آثم، فهذا كله من الكبائر^(١).

ويدخل في هذا: الشرك، والقتل، والزنا، والسرقه، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وشرب الخمر، والكذب، والغيبة، والنميمة، وغيرها مما ثبت في النصوص أنه من الكبائر.

وقد مدح الله في مواضع من كتابه مجتنبى الكبائر وأثنى عليهم، ووعدهم بكريم المآب وعظيم الثواب والمدخل الكريم.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وأخبر سبحانه أنه أحصى على العباد كل ما اقترفوه من صغير وكبير، وأن كل ذلك مسطر مكتوب يجده العبد أمامه حاضرًا يوم القيامة ليجزي سبحانه الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا إِلَّا كِتَابٌ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١ / ٦٥٠-٦٥٢).

أَحْصَنَهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

وتوعدهم على فعلها أعظم الوعيد، وكلما عظمت الكبيرة عظم الوعيد، واشتد العقاب، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

فالكبائر متفاوتة في غلظها وكبرها، كما أنها تغلظ بتكرارها وبالإصرار عليها وبما يقترن بها من سيئات أخرى، وأكبر الكبائر الأربع التي نص عليها ﷺ في الحديث المتقدم ونبه عليها عموم الناس في حجته التي ودع الناس فيها، مؤكداً على التحذير منها، مشيراً إلى كبر خطرها وعظم ضررها على مرتكبها ومقترفها في دنياه وآخره.

وأكبر هذه الأربع الإشراك بالله ﷻ وليس في الذنوب أكبر منه، ولهذا قدمه -عليه الصلاة والسلام- بالذكر، تنبيهاً بذلك إلى أنه أعظم ذنب وأكبر خطيئة، فهو ذنب يحط صاحبه يوم القيامة، ويكبُّه على رأسه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، وتحرم عليه الجنة فلا يشم لها رائحة ولا يذوق منها لذة: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وكل ذنب دون الشرك يرجى لصاحبه المغفرة وإن عذبه الله في النار يوم القيامة فإنه لا يخلد فيها، وأما المشرك فلا مطمع له بمغفرة، ولا سبيل له لنيل عفو، ولا نجاة له من عذاب النار مخلداً فيها أبد الأبد.

قال ﷺ: «أما أهل النار الذي هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة فجاء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» رواه مسلم^(١).

ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وعجبًا ثم عجبًا لأمر المشرك يخلقه الله رب العالمين ويعبد غيره من حجر أو شجر أو قبر أو نحو ذلك مما لا يملك لنفسه ضررًا ولا نفعًا ولا عطاء ولا منعًا فضلًا من أن يملك شيئًا من ذلك لغيره، ولهذا قال ﷺ عندما سئل: أيُّ الذنب أعظم؟

قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خالقك»^(٢)؛ فأى ذنب أعظم وأى ظلم أشنع وأى جرم أكبر من أن يُجعل المخلوق الناقص الضعيف شريكًا للرب الخالق العظيم؛ ولذا أخبر الله سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلًا وندًا وشريكًا، تعالى الله عما يشركون.

ثم يلي الشرك في الخطر الثلاث المذكورة في الحديث: قتل الأنفس المعصومة، والزنا، والسرقة، وهي كلها اعتداء في حق المخلوقين، كما أن الشرك اعتداء في حق الخالق سبحانه.

(١) رقم (١٥٨) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقتل الأنفس التي حرّم الله قتلها اعتداء على الدماء المعصومة، والزنا اعتداء على الأعراض المصونة، والسرقه اعتداء على الأموال المحترمة، وكل ذلك حرام.

وقد سبق ذكر قول النبي ﷺ في خطبة عرفة، وكذلك في خطبته في منى: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»^(١)، فهناك بين حرمتها، وهنا حذر من انتهاكها. ومما ينبغي أن يعلم أن كل من تاب من أيّ ذنب كان، فإن الله يتوب عليه، فالتوبة تهدم ما كان قبلها كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].



(١) سبق تخريجه (ص ١٦٥).

(١٢)

لا يدخل الجنة إلا مؤمن

إن أعظم ما قرّره رسول الله ﷺ بكلماته النيرات، وعظاته البالغات في حجة الوداع بيان مكانة الإيمان، وأنه أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وأن الجنة دار اللذة والحبور والهناء والسرور لا يدخلها إلا أهل الإيمان، ومن لم يكن مؤمناً فالجنة عليه حرام ولا يشم ريحها، بل يكون مآله إلى نار جهنم خالداً مخلداً فيها.

ففي «مسند» الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ مِنْ حَدِيثِ بَشْرِ بْنِ سُحَيْمٍ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنَّهُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(١).

وبعث من بعث من أصحابه ببيان ذلك وإعلانه في الناس معذرةً إلى الله، وإقامةً للحجة على العباد، كما في المسند عن بشر أيضاً رَحِمَهُ اللهُ: «أن رسول الله ﷺ أمر أن ينادى أيام التشريق أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن»^(٢).

وفي بعض الروايات أنه رَحِمَهُ اللهُ بَعَثَ بَشْرَ بْنَ سُحَيْمٍ فَأَمَرَهُ أَنْ ينادي: «ألا إنه

(١) «مسند أحمد» (٣/٤١٥)، و(٤/٣٣٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِرْوَاءِ الْغَلِيلِ» ٤ (١٢٩/).

(٢) «مسند أحمد» (٣/٤١٥)، و(٤/٣٣٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِرْوَاءِ الْغَلِيلِ» ٤ (١٢٩/).

لا يدخل الجنة إلا مؤمن»، وروى مسلم في «صحيحه» عن كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ بعثه وأوس بن الحدثان أيام التشريق فنادى: أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن»^(١).

وكان -عليه الصلاة والسلام- بعث علياً رضي الله عنه إلى مكة بهذا الإعلان في العام الذي قبله ففي «المسند» عن محرّر بن أبي هريرة عن أبيه أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت مع علي بن أبي طالب حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: «ما كنتم تنادون؟» قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن. الحديث. قال أبو هريرة: «فكنت أنادي حتى صَحِلَ صوتي»^(٢)؛ أي: بُحَّ وغلظ. وأيضاً بعث بهذا الإعلان قبل ذلك غير مرة.

ففي «صحيح مسلم»، لما كان يوم خيبر قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»^(٣).

وأيضاً قال لبلال رضي الله عنه: «يا بلال قم فأذن لا يدخل الجنة إلا مؤمن»^(٤). رواه البخاري.

وفي هذا المعنى وردت أحاديث كثيرة نصّاً للعباد، وإعذاراً إلى الله، وإقامة للحجة، وتبيّناً لمقام الإيمان وشأنه، وأن نعيم الله وثوابه ورضاه لا ينال إلا بالإيمان.

(١) «صحيح مسلم» (١١٤٢).

(٢) «مسند أحمد» (٢/٢٩٩)، و«سنن النسائي» (٢٩٥٨)، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/٣٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١١٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٦٦٠٦)، واللفظ له، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمؤمنون هم أهل نعيم الله وثوابه وجنته، ومن سواهم لا مطمع لهم في نعيم، ولا سبيل لهم إلى فوز، وما لهم في الآخرة من خلاق.
ومن قامت عليه حجة الله، وبلغته دعوة المرسلين فأبى عن القبول أو كذب المرسلين، أو استكبر عن طاعة رب العالمين، فليس له يوم القيامة إلا النار هي مأواه وبئس المصير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّوا أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٠-٤٣].

فالجنة دار أهل الإيمان وطاعة الرحمن، ومن عداهم سواء كانوا ملاحدة لا يؤمنون بالله، أو كفاراً يكذبون به وبرسوله، أو مشركين يعبدون معه غيره، أو منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فهم من جثا جهنم وحطب النار، يخلدهم الله فيها أبد الآباد، لا ينقذهم منها منقذ، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها بل يزداد، قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^(١) [النبا: ٣٠].

هذا وأهل الإيمان في الجنة يسعدون، وبنعيمها يتمتعون، لهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

(١) قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره: «وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها».

وبهذا تظهر مكانة الإيمان العالية ومنزلته السامية، فهو أعظم المطالب، وأجل المقاصد، وأنبل الأهداف؛ إذ به ينال العبد سعادة الدنيا والآخرة، ويدرك أهم المطالب وأجل الغايات، ويظفر بالجنة ونعيمها، وينجو من النار وسخط الجبار، وينال رضا الرب فلا يسخط عليه أبداً، ويتلذذ بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مُضرة ولا فتنة مُضلة.

وما يناله أهل الإيمان من الثمار والآثار المباركة أمر يفوق الحصر ويتجاوز العد.

وبالجملة؛ فالخير كله فرع عن الإيمان ومرتب عليه، والهلاك والدمار والشر كله إنما هو بفقده ونقصه.

والإيمان إذا كان كاملاً قد أدى به صاحبه الواجبات، وترك المحرمات فإنه يمنع دخول النار، ويدخل صاحبه الجنة بدون حساب أو عقاب، وإذا كان ناقصاً بترك واجب، أو فعل محرم فإنه يمنع صاحبه من الخلود في النار، كما تواترت النصوص عن النبي ﷺ بأنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو سيراً^(١)، ثم يكون ماله إلى الجنة بعد أن يطهر بالنار من أدران ذنوبه وأقذار معاصيه.

فمنازل الناس في الآخرة إنما هي بحسب حظهم من الإيمان زيادة ونقصاً، وجوداً وعدماً، والتوفيق بيد الله وحده، والمنة كلها له سبحانه ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ

(١) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير». رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (٣٢٥) (١٩٣).

هَدَنَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ [الحجرات: ١٧].

ولهذا إذا دخل أهل الإيمان الجنة وتبوءوا منازلهم فيها قالوا معترفين بمن الله وفضله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ارْتَمَوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فجمع سبحانه في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بالنعمة حيث أوصلهم إلى هذه المنازل، وبين ذكر السبب الذي نالوا به هذه المنّة وهو الإيمان وأعماله، فنسأل الله أن يمنّ علينا بالإيمان الصادق، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.



(١٣)

وصايا متنوعة

وثمة أمور عديدة تناولها النبي ﷺ بالبيان في خطبه ومواعظه في حجة الوداع تمس حاجة الناس إليها في صلاحهم مع ربهم وفي صلاحهم مع أنفسهم ومع مَنْ يعاشرون، يضيق المقام عن تفصيلها، لكن أشير إلى طائفة منها على سبيل الإجمال. فمما بينه وبينه ﷺ في خطبه ومواعظه وتذكيره في حجته تأكيد على لزوم سنته واتباع هديه، وسلوك نهجه، والحذر من البدع والأهواء، ومن القول عليه بلا علم، أو تعمد الكذب عليه، ومفارقة هديه.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن عمرو بن مرة قال: سمعت مرة قال: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضرمة فقال: «أتدرون أي يوم يومكم هذا؟...». وذكر الحديث وفيه: «ألا وإني فرطكم على الحوض أنظركم، وإني مكاثركم الأمم فلا تسودوا وجهي، ألا وقد رأيتموني وسمعتم مني، وستسألون عني، فمن كذب علي فليتبوأ مقعده من النار، ألا وإني مستنقذ رجالاً أو ناساً ومستنقذ مني آخرون، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(١).

(١) «مسند أحمد» (٤١٢/٥)، وقال محققوه (٤٨٢/٣٨): إسناده صحيح، وهو في «سنن ابن ماجه» (٣٠٥٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٩٩).

فهذا تحذير بالغ من البدع والأهواء والإحداث في الدين، وتحذير من الكذب عليه ﷺ والقول عليه بلا علم فإنه من كبائر الذنوب، وعظائم الآثام الموجبة لدخول النار.

ومما بينه ﷺ في حجة الوداع الحث على برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتحذير من الاعتداء على حقوق الآخرين، أو النيل من أعراضهم واغتيالهم. روى الطبراني في «المعجم الكبير» عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهو يقول: «أَمَّكُ وَأَبَاكُ وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ»، قال: فجاء قوم فقالوا: يا رسول الله قتلنا بنو يربوع؟ فقال: «لا تعجني نفس على أخرى».

ثم سأله رجل نسي أن يرمي الجمار؟ قال: «ارم ولا حرج»، ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف، فقال: «طف ولا حرج»، ثم أتاه آخر حلق قبل أن يذبح، قال: «اذبح ولا حرج»، قال: فما سأله يومئذ عن شيء إلا قال: «لا حرج ولا حرج».

ثم قال: «أذهب الله ﷻ الحرج إلا رجل اقترض مسلماً فذلك الذي حرج وهلك»، وقال: «ما أنزل الله ﷻ داءً إلا أنزل له دواءً إلا الهرم»^(١).

ومما بينه كذلك التحذير من الجناية على الآخرين وأن من يجني لا يرجع وبال جنايته من الإثم أو القصاص إلا إليه، وحذر من الشيطان وكيدته وأنه لما رأى قوة التوحيد والإيمان يئس من وجود الشرك في المصلين، ولا يعني هذا اليأس انتفاء وجود الشرك، وأخبر أنه سيكون له أتباع يطيعونه فيما يدعوههم إليه، وحذر من الربا ومن الظلم.

(١) «المعجم الكبير» (٤٨٤)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الجامع» (١٤٠٠).

روى ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع: «يا أيها الناس ألا أيُّ يومٍ أُحرِّمُ؟ ثلاثٌ مراتٍ، قالوا: يومَ الحجِّ الأكبرِ. قال: فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، ولا يجني والدٌ على ولده، ولا مولودٌ على والده.

ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم، فيرضى بها، ألا وكل دم من دماء الجاهلية موضوع، وأول ما أضع منها دم الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، ألا وإن كل رباً من ربا الجاهلية موضوع، لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، ألا يا أمّته هل بلغت؟» ثلاث مرات، قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد». ثلاث مرات^(١).

ومما بيّنه كذلك أن الله قسم الموارث في كتابه وأعطى كل إنسان نصيبه من الميراث، وأخبر أن الولد للفراش؛ أي: لصاحب الفراش، وأن العاهر له الحجر، وحذر من أن يتسبب الرجل إلى غير أبيه.

ففي المسند عن عمرو بن خارجة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بمنى وهو على راحلته وهي تقصع بجرتها، ولُعابها يسيل بين كتفي، فقال: «إن الله قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية، الولد للفراش وللعاهر الحجر، ألا ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه رغبة عنهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل منه صرف ولا عدل»^(٢).

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٥٥)، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٩٧).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٦٦٤)، و«سنن ابن ماجه» (٢٧١٢)، وصححه الألباني رحمته الله في

وَبَيَّنَ أَيْضًا فِيمَا بَيَّنَ قَصْرَ الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا، وَحَذَّرَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهَا حَيْثُ قَالَ لِلنَّاسِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَهُوَ وَقَفَ بِعَرْفَةِ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ»^(١). رواه أحمد.

وَحَثَّ النَّاسَ عَلَى السَّكِينَةِ وَالرَّفْقِ وَعَدَمِ التَّدَافُعِ، فَعِنْدَ الْإِنْطِلَاقِ مِنْ عَرْفَةِ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ»^(٢). رواه النسائي.

وَلَمَّا تَرَاخَمَ النَّاسُ عِنْدَ الْجُمُرَاتِ قَالَ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَإِذَا رَمَيْتُمْ فَارْمُوا بِمِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ»^(٣). رواه أحمد.

وَحَذَّرَ الْأُمَّةَ مِنْ فِتْنَةِ الدِّجَالِ وَذَكَرَ صِفَتَهُ، فَفِي «الصَّحِيحِينَ»^(٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحِجَّةِ الْوُدَاعِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِنَا، وَلَا نَدْرِي مَا حِجَّةُ الْوُدَاعِ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدِّجَالَ فَأُطْنِبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ؛ أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ، أَنْ رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَى مَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ -ثَلَاثًا-، إِنْ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعُورٍ، وَإِنَّهُ أَعُورٌ عَيْنَ الْيَمَنِ كَأَنَّ عَيْنَهُ

=

«صحيح الجامع» (١٧٩٤).

(١) «مسند أحمد» (١٣٣/٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال محققوه (٣١٤/١٠):

حديث صحيح لغيره.

(٢) «سنن النسائي» (٣٠١٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح

النسائي» (٣٤٦/٢).

(٣) «مسند أحمد» (٣٧٦/٦)، و«سنن أبي داود» (١٩٦٦) من حديث أم جندب الأزدية

رضي الله عنها، وحسنه الألباني رحمته الله في «صحيح الجامع» (٧٨٩٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٤٠٢)، والسياق له، و«صحيح مسلم» (١٦٩).

عنة طافية...» الحديث^(١).

إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة، والعظات البالغة، والتوجيهات السديدة،
نصحًا للأمة وبيانًا للدين.

فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وأوفاه، وصلى الله عليه وملائكته والصالحون
من عباده وسلم تسليمًا كثيرًا.



(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ١٠٧).

الفهارس العامة

٥ مقدمة المجموع

دروس عقديّة مستفادة من الحجّ

- ٩ تقديم فضيلة الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
- ١١ مقدمة
- ١٢ الأول: بيان أن الحج مدرسة عظيمة
- ١٧ الثاني: في بيان جملة من منافع الحج
- ٢٢ الثالث: الدلالات العقدية في الإهلال بالتوحيد
- ٢٦ الرابع: دلالة التلبية على التحذير من الشرك
- ٣١ الخامس: في بيان جملة من الفوائد المستفادة من التلبية
- ٣٥ السادس: في الطواف ببيت الله الحرام
- ٤٠ السابع: تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني
- ٤٥ الثامن: في بيان وجوب لزوم السنّة والأخذ بهدي الرسول ﷺ
- ٥٠ التاسع: في يوم عرفة
- ٥٥ العاشر: وجوب الإخلاص لله في الذبح
- ٥٩ الحادي عشر: في حلق الرأس

- الثنائي عشر: الإخلاص لله في الدعاء ٦٤
- الثالث عشر: في التحذير من الغلو في الدين ٦٩

الحج وتهذيب النفوس

- المقدمة ٧٧
- ١- الحج والإصلاح ٧٨
- ٢- الحج والاستجابة لله ٨٢
- ٣- الحج والذكر ٨٦
- ٤- الحج والتوكل ٩١
- ٥- الحج والتوبة ٩٥
- ٦- لباس الإحرام والتذكير بالأكفان ١٠٠
- ٧- الحج ومكانة العلماء ١٠٥
- ٨- الحج والتقوى ١١٠
- ٩- يوم عرفة والتذكير بالموقف يوم القيامة ١١٥
- ١٠- الحج والرابطة الإسلامية ١٢٠
- ١١- الحج وزيادة الإيمان ١٢٥
- ١٢- الحج وإرغام الشيطان ١٣٠
- ١٣- الحج والاستغفار ١٣٥

خطب ومواعظ من حجة الوداع

- مقدمة ١٤٣
- (١) مكانة خطبه ﷺ في حجة الوداع ١٤٥

- (٢) خطبة يوم عرفة ١٥٠
- (٣) إبطال أمور الجاهلية ١٥٥
- (٤) الوصية بالنساء ١٦٠
- (٥) تحريم الدماء والأموال والأعراض ١٦٤
- (٦) خمسُ خصالٍ موجبةٌ لدخول الجنة ١٦٩
- (٧) بيان مَنْ المؤمن، وَمَنْ المسلم، وَمَنْ المجاهد، وَمَنْ المهاجر ١٧٤
- (٨) الدعوة لحملة السنة بالنصرة ١٧٨
- (٩) ثلاث لا يغُلُّ عليهنَّ قلب المسلم ١٨٣
- (١٠) إن أكرمكم عند الله أتقاكم ١٨٧
- (١١) التحذير من كبائر الإثم ١٩١
- (١٢) لا يدخل الجنة إلا مؤمن ١٩٦
- (١٣) وصايا متنوعة ٢٠١
- الفهارس العامة ٢٠٦

